جون سي. لينوكس

أين اللّٰه في عالم جائحة فيروس الكورونا

إصدار معهد عمواس للكتاب المقدَّس

أين الله في عالم الفيروسات التَّاجيّة؟
(فيروس كورونا)

بقلم جون سي لينوكس

Where Is God in a Coronavirus World?

By John C Lennox

Emmaus عمواس
Middle East الشرق الأوسط

© إصدار معهد عمواس للكتاب المقدَّس

أين الله في عالم الفيروسات التَّاجيّة؟

بقلم جون سي لينوكس

طبعة أولى ٢٠٢٠

إصدار النسخة العربية، معهد عمواس للكتاب المقدس
بإذن من أصحاب الحقوق www.thegoodbook.co.uk
جميع إقتباسات الكتاب المقدس مأخوذة من ترجمة فانديك والبستاني
رقم التسجيل الدولي ISBN: 978-965-7660-34-8

صورة الغلاف تصميم معهد عمواس - www.bible-gate.net

شكر وتقدير

أود أن أشكر جميع الأشخاص الذين ساعدوني بطرق مختلفة في هذا المشروع: وعلى وجه الخصوص مدير دار نشر معهد عمواس للكتاب المقدّس الذي قام بالترجمة وتصميم الغلاف, ومساعِدة المؤلف في البحث الدكتورة سيمون وينهام.

جميع الحقوق محفوظة. باستثناء ما يسمح به قانون حقوق النشر، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الإصدار باللغة العربية بأي شكل أو بأي وسيلة دون إذن مسبق من الناشر.

أكَّد البروفيسور جون سي لينوكس حقّه، بموجب قانون حقوق الطبع والنشر والتصاميم وبراءات الإختراع لعام 1988 ليتم تحديدها كمؤلف لهذا العمل.

المحتويات

الفصل	الموضوع	الصفحة
	ما قيل في هذا الكتاب	٥
	المقدمة	٦
	الشعور بالضغف	٧
	الكاتدرائيات ووجهات النظر العالمية	١١
	هل يساعد الإلحاد؟	١٨
	كيف يمكن أن يكون هناك فيروس كوروني إذا كان هناك إله محب؟	٢٦
	دليل على المحبة	٣٤
	الفرق الذي يصنعه الله	٣٨
	الحاشية	٤٧

إلى عالم متألِّم

جون سي لينوكس

أين الله في عالم الفيروسات التَّاجيّة؟

(فيروس كورونا)

بقلم جون سي لينوكس

ما قيل في هذا الكتاب:-

«لقد تغير العالم في الأشهر القليلة الماضية. لهذا فإنَّ هذا الكتاب يضع جائحة الفيروس التاجي في منظور تاريخي وعلمي ولاهوتي وشخصي من شأنه أن يساعدنا جميعًا على رؤية الوضع من خلال عدسة واسعة الزاوية». الدكتور ديفيد كرانستون، أستاذ الجراحة المساعد بجامعة أكسفورد؛ وهو زميل الهيئة الإدارية في كلية جرين تمبلتون.

«يُضفي هذا الكتاب رونقًا نبويًّا لافتًا لإستفحال جائحة كورونا كحدَث إستثنائيّ في أيَّامنا المعاصِرة. ويربط الأحداث المتتالية بقالَبٍ كتابيّ عفويّ يُعبِّر عن عُمق المعرفة الآيلة إلى قبول الفكر الإلهيّ في عالَمٍ مُحتضرٍ ومتألِّم. وقد نجح الكاتِب في دمج هذه الرِّسالة مع الدَّعوة إلى عبادَة الله حتَّى في زمن الكورونا والأحداث التي ستأتي على عالَمنا قبل المجيء الثَّاني للرَّبِّ يسوع». ـالدُّكتور جون جوزيف حدَّاد، أستاذٌ مُحاضِر في العلوم الطبِّيَّة في لبنان.ـ

«أخذني هذا الكتاب في رحلة بدأت عبر التاريخ حتى يومنا الحاضر وفيها يثبت الكاتب بأن للألم هدفًا وغرضًا وأن الله يهيمن على الظروف، وبأنَّ هناك هدفًا من وجود المؤمنين في أوقات المحن، وعلى المسيحي أن يُظهِر محبة الله لمن حوله كما فعل مارتن لوثر في زمن الأوبئة».
-الأخ شاول قمحاوي، شيخ في كنيسة الإخوة، ومدرِّس في معهد عمواس للكتاب المقدس.-

«لم أكترث كثيراً من قبل لمقالات وتعليقات عن الفيروسات والأمراض، إلى أن قرأت هذا الكتاب الذي شدّني إليه، ووجدت فيه مواضيع شتى مترابطة مع بعضها بفكرة واحدة هي أن لله هدف صالح لبني البشر من خلال الألم والكوارث على أنواعها، وأنّهُ المهَيمِن على كل مجريات الأمور في عالمنا سواءٌ كانت من نتاج البشر أو الطبيعة.
-جورج خليل، مؤَسِّس ومدير معهد عمواس للكتاب المقدَّس باللغة العربية.-

المقدمة

نحن نعيش في فترة فريدة من نوعها تمّ تحديدها. لقد ذهب الكثير من يقيننا القديم، مهما كانت رؤيتنا للعالم ومهما كانت معتقداتنا. سواء كنت مسيحياً أم لا، فإن جائحة الفيروس التَّاجي محيِّرة ومقلقة بالنسبة لنا جميعاً. فكيف نبدأ بالتفكير فيها والتعامل معها؟

يتكون هذا الكتاب من تأمّلاتي حول ما نشهده اليوم. لقد بدأت في كتابتها قبل نحو شهرين، وقد تغيرت الأمور بسرعة منذ ذلك الحين، ولا شك في أنها ستتغير مرة أخرى. إنَّ الآراء التي أعبر عنها هنا هي وجهة نظري ولا يجب أن تُنسب إلى الجامعة أو المنظمات التي أنتمي إليها. سيكون هناك، حتمًا، بعض الجوانب الوعرة وأوجه قصور. لذلك أنا أعتذر.

أود أن أدعوك، أيها القارئ العزيز، للنظر إلى الكتاب على النحو التالي: أنا أجلس معك في مقهى (إذا استطعنا فقط!)، وقد سألتني السؤال المطروح على غلاف الكتاب. لقد وضعت فنجان القهوة وحاولت أن أعطيك إجابة صادقة. إنَّ ما يلي هو ما سأحاول قوله لكي أمنحه بعض الراحة والدعم والأمل.

١. الشعور بالضعف

أنا أجلس هنا في هدوء تامّ،

إنني في منتصف السبعينات، أجلس في المنزل مع زوجتي، أشاهد وزير الصحة الحكومي على شاشة التلفاز يُبلِّغنا أنه قد يتعين علينا البقاء في منازلنا في عزلة ذاتية لمدة تصل إلى أربعة أشهر في محاولة تجنُّب جائحة الفيروس التاجي الذي يجتاح العالم. (هناك العديد من الفيروسات التَّاجيّة، أما هذا فقد سمِّي COVID-١٩، على الرغم من أننا سنستخدم في الغالب مصطلح "الفيروس التاجي" في هذا الكتاب). من الصعب إدراك أن هذا الوباء من المحتمل أن يكون الأسوأ على الإطلاق، وأن كل تقديراتنا الحالية لتأثيره من المرجح أن تنتقص في الواقع. من حجمه ونطاقه وكأنه شيء من فيلم بائس. ومع ذلك يحدث ذلك بالفعل.

لم يسبق لنا أن شهدنا إغلاق المدن وحتى الدُول، وإغلاق الحدود، وحظر السفر، وإغلاق جميع الخدمات باستثناء الخدمات الأساسية، وحظر التجمعات الرياضية الكبيرة، والبلدات والمدن الصامتة التي تصرخ من الخوف والعزل الذاتي. إن معدل إنتشار الوباء يفرض ضغوطًا هائلة على النظم الصحية الوطنية حيث يتم زيادة إنتاج الموارد الضرورية كما لم يحدث من قبل.

أصبحت أوروبا مركز الوباء الذي نشأ في الصين. من ناحية، تتميز البرامج الإخبارية التلفزيونية بشوارع فارغة، ورفوف فارغة في محلّات السوبر ماركت، بالإضافة إلى ملاعب رياضية فارغة وكنائس فارغة؛ بينما من ناحية أخرى، تمتلئ المستشفيات بالمصابين، وهناك طلب إضافي على الأسِّرة الإضافية، إنَّ الوظائف والشَّركات في خطر، حيث أنَّ الخوف يلاحق العالم وينمو يومًا بعد يوم فيتأثر المزيد من الناس تأثيرًا سلبيًا.

أحد الآثار الرئيسية هو الشعور العالمي بزيادة الضعف. إعتاد الكثير منا على عالم مستقر إلى حد ما، حيث يمكن التنبؤ بالحياة بشكل معقول. الآن يبدو أن كل شيء يتداعى: الأشياء التي كنا نعول عليها دائمًا قد ذهبت، ونحن معرَّضون كما لم يحدث من قبل لقوى خارجة عن سيطرتنا. يخشى الناس على صحتهم الجسدية والنفسية؛

بالنسبة لعائلاتهم وأصدقائهم، وخاصة كبار السن والعجزة؛ لتواصلهم الإجتماعيّ، وإمداداتهم الغذائية، ووظائفهم والأمن الإقتصادي، ومجموعة من الأشياء الأخرى.

في مثل هذا المناخ المهتز وغير المؤكد، من السهل جدًا فقدان الإحساس بالنِّسب المئوية. بالرغم كل شيء، يبدو أننا لا نواجه صعوبة كبيرة في قبول الإحصائيات السنوية لوفيات الإنفلونزا. إنَّ منظمة الصحة العامة في إنجلترا تقدر، في المتوسط، أن ١٧،٠٠٠ شخص في إنجلترا ماتوا بسبب الإنفلونزا في السنوات الخمس الماضية. أما الولايات المتحدة، فإن مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها تحدّد الرقم من أكتوبر ٢٠١٩ إلى مارس ٢٠٢٠ بحدود ٢٣٠٠٠-٥٩٠٠٠. ويقدرون أيضًا أنه في عام ٢٠١٩ مات ١,٣٥ مليون شخص على الطرق في جميع أنحاء العالم. ومع ذلك، يخيفنا الفيروس التاجي أكثر من أيٍّ من هؤلاء، وذلك بسبب النطاق الواسع والنمو المُطَّرد للفيروس وإمكاناته المقدرة بقتل عدد لا يحصى من الناس. إنني أدرك تمامًا أنه بحلول الوقت الذي تقرأ فيه هذا الكتاب، ستكون الأعداد البشريَّة التي ماتت بسبب الفيروس التاجي أكبر بكثير مما هي عليه الآن كما أكتبها.

يشرح فرانسيس كولينز، مدير المعهد الوطني للصحة في الولايات المتحدة الأمريكية، في مقابلة أجراها مع صحيفة «الأطلسي» تستحق القراءة بأكملها. إنّ أكثر ما فاجأه من هذا الفيروس:

> «إنّ درجة السرعة التي ينتقل بها هذا الفيروس هي أكثر مما كان يحصل مع فيروس السارس. كان فيروس السارس وضعًا مخيفًا للغاية للعالم قبل ١٨ عامًا، لكنه لم يصل أبدًا إلى مستوى الإصابات أو الوفيات التي لدينا نتيجة هذا الفيروس التاجي، لأنه لم يكن قابلاً للإنتقال. كان السارس ينتقل فقط من المرضى الذين كانوا حقًّا مرضى جدًّا. لكن يبدو أن هذا المرض قابل للإنتقال من الأشخاص الذين يعانون من مرض بسيط أو ليس لديهم أي مرض على الإطلاق...»

كيف يجب أن نتفاعل مع كل هذا؟ هل من الممكن حتى حصره بأية نسبة مئوية؟ كيف يمكننا تجنب التسليم للذعر والهستيريا؟

لقد كنا هنا من قبل

كانت هناك أوبئة مماثلة في الماضي. ربما يكون أقدم مثال مسجل هو ما يسمى بالطاعون الأنطوني أو طاعون جالينوس في ١٦٥-١٨٠ م. إنَّ المرض المذكور هنا غير مؤكد، ولكن يعتقد أنه كان الحصبة أو الجُدَري. لقد قتل حوالي خمسة ملايين شخص. ثم كان هناك طاعون جُستِنيان (٥٤١-٥٤٢ م). كان هذا مرض طاعون دِبلي إنتشر من الحيوانات (الجرذان) عن طريق البراغيث إلى البشر. ويقدَّر أن أكثر من ٢٥ مليونًا قد ماتوا.

لقد كان هناك طاعون دِبليّ آخر، عرف باسم الموت الأسود، وذلك في القرن الرابع عشر (١٣٤٦-١٣٥٣)، والذي قتل ما يقدر بنحو ٧٠ إلى ١٠٠ مليون شخص يعيشون في أوراسيا - مما قلَّل من عدد سكان العالم بنحو ٢٠ في المائة.

في وقت لاحق من التاريخ، كان هناك العديد من أوبئة الكوليرا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتي مات نتيجتها أكثر من مليون شخص. أما جائحة الإنفلونزا فقد أودت بحياة ٢٠ إلى ٥٠ مليون في ١٩١٨-١٩٢٠. خلال فترة حياتي، توفي مليونان بسبب الإنفلونزا الآسيوية في ١٩٥٦-١٩٥٨ ومليون آخر من إنفلونزا هونغ كونغ في ١٩٦٨-١٩٦٩. وقد بلغ عدد الوفيات الناجمة عن جائحة فيروس نقص المناعة البشرية- الإيدز، الذي بلغ ذروته في الفترة ٢٠٠٥-٢٠١٢، حوالي ٣٢ مليون شخص.

لقد صنِّفت هذه الأمراض على أنها أوبئة. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك العديد من الأوبئة الأخرى، مثل الإيبولا والسارس، والتي تم حصرها جغرافيًا وبالتالي فهي غير مؤهلة كأوبئة. منذ ١٢٠ عامًا مضت، عاش الناس في الغرب مع الأوبئة - التيفوس والسل والكوليرا وما إلى ذلك - كجزء من الحياة الطبيعية.

يعتقد أن الفيروس التاجي، مثل الطاعون الدِّبلي، قد بدأ بالحيوانات وانتشر إلى البشر. ومع ذلك، ها نحن في القرن الحادي والعشرين الآن: لقد حدث تحسن كبير في فهم المرض والطب في الآونة الأخيرة، وقد أدى ذلك على الأرجح إلى جعل العديد من الناس يتصورون بكل رضا أن الأوبئة قد انتقلت إلى ثنايا التاريخ بالتأكيد. الآن فقط بدأنا ندرك أن هذا لم يحصل. كيف نرد على هذه الظروف الجديدة؟

هل الله موجود؟

في الماضي، في أوقات الكوارث الوطنية في دول الغرب، توافد الناس إلى الكنائس وقام القادة الوطنيون بدعوات للصلاة. إنَّ مثل هذه الأحداث نادرة اليوم، على الرغم من أن بعض القادة الوطنيين على الأقل طلبوا الصلاة - وكذلك بالطبع، مثل العديد من قادة الكنيسة حول العالم.

لقد وجه قاضي قضاة جنوب أفريقيا موغوينغ نداء لا ينسى: «إن دعوتي لجميع الذين يمكنهم الصلاة، أن يروا أنها ضرورة مطلقة ابتداء من اليوم للقيام بذلك».

لكن في الوقت الحاضر، ما أقل عدد الناس الذين لديهم أي أبعاد عن الله على الإطلاق في حياتهم. ونظرًا لإغلاق الكنائس في جميع أنحاء العالم للحد من إنتشار الفيروس، يتساءل الكثيرون «أين الله؟» - أي، هل هو موجود على الإطلاق؟ هل هو في الحجر الصحي الذي يتعذر الوصول إليه؟ مِن أين أو ممَّن يمكننا الحصول على عزاء حقيقي أو أمل؟

٢. الكاتدرائيات والمنظور العالمي

إننا في أوقات الأزمات نبحث عن الأمل. ففي مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز في ١٠ مارس ٢٠٢٠، كتب الصحفي الإيطالي ماتيا فيراريسي ما يلي:

«إن الماء المقدس ليس مُعقِّمًا لليدين والصلاة ليست لِقاحًا...» ولكن بالنسبة للمؤمنين، فإنَّ الدّين هو مصدر أساسي للشفاء والأمل الروحي، إنه علاج ضد اليأس، ويوفر الدعم النفسي والعاطفي الذي هو جزء لا يتجزأ للكيان الصحيح. (وهو أيضًا ترياق للوحدة، والذي يشير إليه العديد من الخبراء الطبيين باعتباره أحد أكثر مشاكل الصحة العامة إثارة للقلق في عصرنا).

«وعلى مستوى أعمق، فإن الدين بالنسبة للمصلين هو المصدر الأخير للمعنى الحقيقي. إن الإدعاء الأكثر عمقًا لكل دين هو فهم الوجود برمته، بما في ذلك، وربما بشكل خاص، الظروف التي تتميز بالمعاناة والضيق. خذ مثل هذه الإدعاءات على محمل الجد بما فيه الكفاية، وحتى الصحة الجسدية، عندما تكون خالية من غرض أكبر، تبدأ في الظهور وكأنها جوفاء بلا قيمة».

عندما تبدو الحياة قابلة للتنبؤ وتحت السيطرة، من السهل أن تتأخر في طرح الأسئلة الكبيرة، أو أن تكون راضيًا عن إجابات بسيطة. لكن الحياة ليست بهذه الطريقة الآن، ولا لأي منا. لذلك فإنّهُ ليس من المستغرب، مهما كانت عقيدتك أو نظام دينك، أن تطرح أسئلة الحياة الكبيرة على السطح، الأمر الذي يتطلب الإنتباه.

يواجهنا الفيروس التاجي جميعًا بمشكلة الألم والمعاناة. فهذه، بالنسبة لمعظمنا، واحدة من أصعب مشاكل الحياة. فإذا ما مررنا بهذه التجربة فستجعلنا بحقّ نشك في قبول الإجابات المبسطة والمحاولات السطحيّة.

إنَّ ما أريد أن أحاول القيام به هنا، هو تجنُّب هذه الأنواع من «الإجابات»، والتفكير معك بأمانة، من خلال بعض الأفكار التي ساعدتني في التعامل مع هذه الأسئلة الصعبة مثل الفيروس التاجي الذي بدأ في تغيير كل شيء.

الكاتدرائيات المدمَّرة

يمكنك أن تسأل: لماذا نحتاج إلى كتاب آخر عن مسألة المعاناة عندما يتوفر الكثير منها الآن؟ الجواب هو أن معظم هذه الكتب تركِّز على مشكلة الشَّر الأخلاقي. أما هذا الكتاب فإنّهُ بدلاً من ذلك تراه يركز على ما يسمى مشكلة الشَّر الطبيعي. أي أن تركيزي هنا ينصب على الطبيعة المتصدِّعة، مبدئيًا الفيروسات التَّاجيّة، ولكن أيضًا على جميع أنواع الأمراض والكوارث الطبيعية مثل الزلازل والتسونامي.

يأتي الألم والمعاناة من مصدرين متميِّزين:

- **أولاً،** هناك معاناة نتيجة للكوارث والأمراض الطبيعية التي لا يتحمَّل الإنسان مسؤوليتها بشكل مباشر مثل: الزلازل والتسونامي والسرطانات والفيروسات التَّاجيّة. إذ أنَّ جميع هذه تؤدي إلى مشكلة الألم أو، كما يطلق عليه في كثير من الأحيان، مشكلة الشَّر الطبيعي. هذا المصطلح مؤسف إلى حد ما، لأن كلمة «الشَّر» لها دِلالات أخلاقية، لكن لا الزلازل ولا الفيروسات يمكن إعتبارها عوامل أخلاقية.
- **ثانياً،** هناك معاناة يتحمل الرجال والنساء المسؤولية المباشرة عنها: أعمال الكراهية والإرهاب والعنف والإساءة والقتل. فإنَّ هذه تؤدي إلى مشكلة الشَّر الأخلاقي.

إنَّ كاتدرائية مدينة «كنيسة المسيح Christ Church» في نيوزيلندا، وكاتدرائية «كوفنتري Coventry» في إنجلترا، وكاتدرائية «فرونِكريخ Frauenkirche» في دريسدن، ألمانيا، هي رموز قوية ومؤثرة لهاتين المشكلتين. إنَّ هذه المباني الكنسية الثلاثة المُدمَّرة تحمل آثار شيئين. من ناحية، يظهرون دليلاً على الجمال والأناقة التي كانت عليها في السابق. ومن الناحية الأخرى، فإنها تشوّهت بفجوات عميقة نتيجة الكارثة، إنَّ زلزال «كرايست تشيرش» وتفجيرات «كوفنتري» «ودريسدن». تستعرض جميعها كاتدرائية مدمرة صورةً مختلطة للجمال والدمار.

إنها معًا تذكّرنا بأنه من غير المحتمل وجود أي إجابات سهلة على الأسئلة

الوجودية العميقة التي تنشأ عن الكارثة. بالنسبة للكثيرين في مثل هذه الأوقات، تكون الصورة أكثر من صادمة، إنها حديثة للغاية. وإنَّ أولئك الذين منا يقفون مباشرة بعيدين عن ألم الآخرين يواجهون خطر الفشل في أن يكونوا حساسين بما فيه الكفاية لهذه الحالة الحديثة العهد. ومع ذلك، هناك فرق بين مدينة «كنيسة المسيح» ومدينة كوفنتري. لقد انهارت الكاتدرائية في «كنيسة المسيح» نتيجة لتحرُّك الصفائح الأرضيَّة. بينما انهارت الكاتدرائيات في كوفنتري ودريسدن نتيجة الحرب. قارن بعض الناس زلزال «كنيسة المسيح» بكارثة 11 سبتمبر، لأنها وجَّهت صدمة مماثلة في جميع أنحاء البلاد. ولكن هناك فرقًا كبيرًا. لم يكن تدمير البرجين في نيويورك نتيجة كارثة طبيعية. لكنها كانت كارثة أخلاقية. لقد كانت نتاج الشَّر البشري. وفي الوقت نفسه، فإن الزلازل هي كوارث طبيعية وليست أخلاقية.

من الطبيعي أن يرتبط الشَّر الأخلاقي بالشَّر الطبيعي أحيانًا. فالوضع معقد لأنه يمكن أن يؤدي أحدهما إلى الآخر؛ قد تؤدي إزالة الجشع التجاري في قطع أشجار الغابات مما يؤدي بالنتيجة إلى إمتداد رقعة الصحراء، الأمر الذي قد يؤدي بدوره إلى سوء التغذية والأمراض. لكن يبدو أن تفشي الفيروس التاجي هو حالة شَرّ طبيعي (على الرغم من أن الشَّر الأخلاقي يكمُن في الشَّر نتيجة الذعر الأناني، وتكديس الطعام). حتمًا، سيسعى أصحاب نظريات المؤامرة إلى إلقاء اللَّوم على بعض العوامل البشرية. فالبشر يشاركون في انتقال الفيروس، ولكن ليس بشكل متعمَّد أو أناني، والإفتراض الرئيسي هو أن الفيروس قفز من الحيوانات إلى البشر.

ومع ذلك، هناك أدلة على أن السلطات في الصين أَخفَت في البداية تقارير عن فيروس جديد مدمِّر محتمل. ففي صحيفة الجارديان في ١١ مارس ٢٠٢٠، ذكرت هيلين ديفيدسون من هونج كونج ما يلي:

«أفادت التصريحات الرسمية للحكومة الصينية، لمنظمة الصحة العالمية، أن أول حالة مؤكدة تم تشخيصها كان في ٨ ديسمبر-كانون أوّل. يومها وُبِّخ الأطباء الذين حاولوا توجيه الإنذار مع زملاءهم بشأن مرض جديد في أواخر ديسمبر- كانون أول. حينها لم تعترف السلطات علنا بوجود إنتقال للفيروس من إنسان إلى إنسان حتى ٢١ يناير-كانون ثاني».

ولكن مما يدعو إلى الأسف حقًا، أنَّ الدكتور Li Wenliang، طبيب العيون، قد توفي في Wuhan بعد أقل من شهرين نتيجة للإصابة بالعدوى في ديسمبر-كانون أول ٢٠١٩، الذي رُحِّب به كبطل في الصين لإثارته ناقوس الخطر بشأن الفيروس التاجي.

لا شك أنه سيكون هناك إتهامات وإتهامات مضادة لرد فعل كل دولة على الفيروس التاجي لفترة طويلة قادمة. لكن لا شيء من ذلك سيساعد في التعامل مع الأزمة، ولا يساعدنا في معرفة أفضل طريقة للرد الشخصي.

ستعتمد كيفية ردِّنا حتمًا إلى حدّ ما على وجهة نظرنا. تختلف طريقة ظهور الفيروس التاجي لإمرأة مسنة مصابة، تتأرجح بين الحياة والموت في العناية المركزة، إختلافًا كبيرًا عما تبدو عليه للطبيب الذي يعالجها، أو لفرد من الأسرة الذي لا يستطيع زيارتها، أو القس الذي يحاول مساعدتها. هنالك مصدر قلق آخر بالنسبة للكثيرين منا، ألا وهو ما إذا كان سيصيبنا أو أنّهُ أصابنا بالفعل. وعما إذا كان بإمكاننا نقل الفيروس أو أننا نقلناه إلى شخص آخر.

كل منا بحاجة إلى فهم الفيروس التاجي بثلاث طرق مختلفة: فكريًا وعاطفيًا وروحيًا. كلها مهمة، وتشكل معًا تحدِّيًا هائلاً لأي شخص.

نتمنى جميعًا الحصول على وضوح فكري، وسيقضي الكثير من الأشخاص ساعات في مشاهدة البرامج الإخبارية والإبحار في صفحات الإنترنت على أمل الحصول على معلومات جديدة قد تساعدهم على فهم ما يحدث. ومع ذلك، فإنَّ التحليل الفكري لا يخترق بسهولة حجاب الدموع. كيف يمكن للمرء أن يأتي بمعنى، أو إذا لم يكن معنى معقولًا، ربما أمل في المواقف المدمرة والتي في الواقع لا رجعة فيها؟ تتدفق الأسئلة العميقة في تيار لا ينتهي، وربما تكون سيلًا بالنسبة لك بينما تقرأ هذا. لماذا حدث هذا لي أو لهم؟ لماذا أصيبوا وماتوا، بينما أنا نجيْت؟ أين أجد التخفيف من الألم الجسدي والعقلي؟ هل هناك أمل؟

ما الذي يفعله الألم؟

تعلمنا الخبرة البشرية والطب الأولي أنّ للألم دورًا مهمًا يلعبه في حياتنا.

- **أَوَلًا**، يحذِّرنا الألم من الخطر. على سبيل المثال؛ إذا وضعت يدك بالقرب من النار، فإن نظامك العصبي ينبه عقلك وتشعر بالألم، مما يجعلك تسحب يدك وبالتالي تحميها من الإصابة. لا يمكننا القول، إذن، أن الألم كله سيئ.

- **ثانيًا**، يشارك قدر معين من الألم في التطور البدني. على سبيل المثال؛ إذا كانت ألعاب القوى أو تسلق الجبال أو ألعاب كرة القدم الأمريكية تتطلّب مجهودًا بدنيًا، أو إن كانت لعبتي الرجبي والملاكمة البريطانية أن تستمرّا، فإن عشاق الرياضة سيتحملون الكثير من الألم من أجل التفوق.

- **ثالثًا**، وعلى مستوى أعمق، فإنّ المعاناة والألم قد يساهمان في تكوين الشخصية. هناك العديد من الأمثلة على الصمود والثبات في وجه المعاناة قد تُسهِم في صقل الشخصية بمستوى أسمى. هناك حقيقة فيما قاله المؤلف الروسي فيودور دوستويفسكي الذي جعل شخصية راسكولنيكوف يقول: إنه لا يستطيع تخيل شخص عظيم لم يُعاني. «الألم والمعاناة لا مفر منهما دائمًا لذكاء كبير وقلب عميق».

غالبًا ما يكون الآباء على علم بذلك. في بعض الأحيان، يسمحوا للطفل بخوض تجربة مؤلمة، لأنهم كما يعلمون من تجربتهم الخاصة، ستفيد طفلهم في نهاية المطاف.

لا أدَّعي أنني أعرف الكثير عن هذا، لكن دعني أتحدث شخصياً للحظة. قبل بضع سنوات، نبّهني الألم في صدري أن هناك خطأ ما. تم نقلي إلى المستشفى، حيث اعتُبرت الحالة خطيرة لدرجة أنني اضطررت إلى توديع زوجتي. أنقذني تدخل طبي ماهر في الوقت المناسب من نوبة قلبية حادة كانت، في جميع الإحتمالات، قاتلة. بكلمات أخرى، كان لدي زلزال في قلبي.

هذا النوع من التجربة لن يترك أحداً دون تغيير. بالنسبة لي، علَّمتني الكثير: علَّمتني أنني ميِّت وأنني ضعيف. وأشعر الآن أن حياتي أعيدت إلي كهبة ثمينة يجب أن أعتز بها، وجلبَت لي المزيد من الإلحاح في إحساسي بالهدف والدعوة.

الكوارث ونظرتنا العالمية

في نفس الوقت تقريبًا، مع مرضي بالقلب شبه المميت، فقَدَت أختي إبنتها التي تزوجت للتو، والبالغة من العمر ٢٢ عامًا، بسبب ورم خبيث في الدماغ. إذا كنت سأشكر الله على شفائي، كما أفعل، فماذا أقول لأختي عن الله؟ وماذا أقول عن الله عندما يتعلق الأمر بجائحة مثل الفيروس التاجي، حيث لا نرى أي بُعد إيجابي على الإطلاق، فقط كارثة غير متوقفة؟

كتب سي إس لويس، ذات مرة رسالة سوف يتردد صداها لدى معظمنا:

> «من الصعب الإعتقاد بأن مَخاضْ (مصائب) كل الخليقة التي عندما نزل الله ليشاركنا بها قد يكون ضروريًا في عملية تحويل المخلوقات المحدودة (بالإرادة الحرة) إلى آلهة، إن جاز التعبير...».

يمكننا الآن إضافة الفيروس التاجي إلى القائمة.

كتب هذه الرسالة شخص كان مرَّة ملحدًا وأصبح مسيحياً في منتصف العمر والذي استكشف معضلة الألم والمعاناة والشَّر في كتابين: «معضلة الألم، والحزن المرصودين». الذين يوضحان حقيقة أن موقفنا تجاه هذه القضايا العميقة متأثِّر بمنظورنا للعالم. إنَّ الإطار الذي تم بناؤه على مر السنين، والذي يحتوي على التفكير والخبرة التي يجلبها كل منا هو للتأثير على الأسئلة الكبيرة حول الحياة والموت ومعنى الوجود. لدينا جميعًا إطار عمل من هذا القبيل، مهما فكرنا في ذلك كثيرًا أو قليلاً.

يشير جيمس سيري-James Sire، في كتاب مفيد للغاية بعنوان: الكون على عتبة الباب-The Universe Next Door، إلى أنه لا يوجد سوى ثلاث عائلات رئيسية من وجهات النظر العالمية.

- **أولاً**، هناك النظرة التوحيديّة للعالم، والتي تتبعها الديانات الإبراهيمية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلام. هذا يعلمنا أن هناك إلهًا خلق العالم ويهتم به، والذي خلق البشر على صورته. (لاحظ أنني قلت

«عائلات» ذات وجهات نظر عالمية: هناك إختلافات مصيريّة داخل كل فئة، كما سيقول لك أي يهودي أو مسيحي أو مسلم ممن يأخذ كتابه المقدس على محمل الجد.)

- **ثانيًا،** هناك النهج الإيماني المناقض، أي، النظرة الإلحادية للعالم، التي تنص على أن هذا الكون (أو الأكوان المتعددة) هو كل ما هو موجود؛ لا يوجد بُعد خارق للطبيعة.
- **ثالثًا،** هناك نظرة وحدة الوجود التي تدمج مفاهيم الله والعالم في كيان واحد غير شخصي.

أنا مدرك جيدًا أيضًا أن هناك أشخاصًا يأخذون منظورًا متشككًا أو لا أدريًّا. لكن لا أحد يشكك أو لا يعرف شيئًا عن كل شيء، وبالتالي فإن معظم الناس يتأقلمون في مكان ما في إحدى وجهات النظر الثلاثة التي ذكرناها للتو.

تنطبق هذه الصورة عليّ أيضًا. وإذ أنَّ لديّ شخصيًّا وجهة نظر عن العالم. فأنا مسيحي، ولهذا سأحاول أن أوضح لماذا أعتقد أن المسيحية لديها ما تقوله حول مسألة الكوارث الطبيعية مثل الفيروسات التَّاجيّة، وهذا شيء لا يمكن العثور عليه في مكان آخر. ربما ستوافقني، وربما لا. لكني آمل أن تنهي هذا الكتاب بعد أن تفهم سبب قدرة المسيحيين على التحدث بثقة عن الرجاء والشعور بالسلام، حتى في عالم مليء من عدم اليقين حيث يظهر فيه الموت فجأة.

٣. هل الإلحاد يساعد؟

إن نظرتك للعالم ستحدث فرقًا في كيفية تفاعلك مع الكوارث مثل جائحة الفيروس التاجيّ، والزلازل أو التسونامي. على سبيل المثال، إستجاب الكثير من المؤمنين لزلزال نيوزيلندا في عام ٢٠١١ من خلال تأكيد إيمانهم بالله في كلمات المزمور٤٦:١-٣:

أللهُ لَنَا مَلْجَأٌ وَقُوَّةٌ.
عَوْنًا فِي الضِّيْقَاتِ وُجِدَ شَدِيدًا.
لِذلِكَ لاَ نَخْشَى وَلَوْ تَزَحْزَحَتِ الأَرْضُ،
وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ.
تَعِجُّ وَتَجِيشُ مِيَاهُهَا
تتَزَعْزَعُ الْجِبَالُ بِطُمُوِّهَا.

يقول مؤمنون آخرون أن الأوبئة والزلازل وأمواج تسونامي هي دينونة مباشرة من الله، كما اقترح بالفعل أناس من ديانات مختلفة في حالات زلزال مدينة «كنيسة المسيح» وأمواج تسونامي التي ضربت اليابان في نفس العام. هذا جواب فظّ للغاية يُسبب الكثير من الأذى غير الضروري.

وفيما يتعلق بهذا المنظور، فإن أحد المعتقدات الأساسية التي يمكن ايجادها في وحدة الوجود هو أن أولئك الذين يتألمون، يفعلون ذلك بسبب خطيتهم في الحياة السابقة، وأن آلامهم في حياتهم الحالية تساعدهم في التخلص من مصيرهم. لذلك، وبما أن سلسلة الأسباب والنتائج غير قابلة للكسر، فلا فائدة من بذل الجهد للتخفيف من آلامهم؛ هذا قد يخدمهم فقط في إبطاء عملية تطهيرهم. من الصعب أن نرى كيف تقدم هذه النظرة للعالم أي رجاء على الإطلاق للأشخاص الذين يعانون من الفيروس التاجيّ أو أي مرض آخر. ولتعقيد الأمور أكثر من ذلك، ترى بعض الفلسفات الشَّرقية أن المعاناة مجرد وهم.

ليس صحيحًا بحسب الكتاب المقدس، أنه إذا كان شخص ما يعاني من مرض أو

حادث أليم، فينبغي أن نستنتج أنّ هذا الشخص مذنب في خطايا خطيرة. غالبًا ما تخيَّلَت الأفكار الشائعة أن هذا قد يكون وجهة نظر الكتاب المقدس. لكن مجمل سفر أيوب في العهد القديم يُعتبر إحتجاجًا ضد هذه الفكرة. فالله نفسه أخبر أصدقاء أيوب، الذين اعتقدوا أن أيوب مسؤول عن معاناته، بأنهم مخطئون.

علاوة على ذلك، فإن ألم ومعاناة أيوب ناتجين عن مزيج من الشَّر الطبيعي والأخلاقي. إنَّ مصدر الهجمات على عائلة أيوب هو غارتين قاتلتين من قِبل السبئيين والكلدانيين (الشَّر الأخلاقي) وكارثتان طبيعيتان للنار والرياح (الشَّر الطبيعي). (أؤكد مرة أخرى أن كلمة «الشَّر» هنا لا تعني أن مصدر المعاناة غير أخلاقي، فالنار ليس لها أخلاق في حد ذاتها، ولكنها تشير إلى أن الضرر الذي تسببه للمتضررين يمكن وصفه بأنه سيئ أو شرِّير).

وبالمثل، أنكر يسوع صراحة أن المعاناة كانت مرتبطة بالضرورة بإساءات شخصية. مرة أخرى، وكما هو الحال مع أيوب، يرتبط السياق مباشرة بموضوعات الشَّر الطبيعي والأخلاقي. إنَّ الكاتب لوقا، الذي كتب سيرة تاريخية عن يسوع (عادة ما نسميها «إنجيل لوقا» أو ببساطة «لوقا»)، يروي الواقعة:

«وَكَانَ حَاضِرًا فِي ذلِكَ الْوَقْتِ قَوْمٌ يُخْبِرُونَهُ عَنِ الْجَلِيلِيِّينَ الَّذِينَ خَلَطَ بِيلاَطُسُ دَمَهُمْ بِذَبَائِحِهِمْ. فَأجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:«أَتَظُنُّونَ أَنَّ هؤُلاَءِ الْجَلِيلِيِّينَ كَانُوا خُطَاةً أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الْجَلِيلِيِّينَ لأَنَّهُمْ كَابَدُوا مِثْلَ هذَا؟ كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ. أَوْ أُولئِكَ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ سَقَطَ عَلَيْهِمُ الْبُرْجُ فِي سِلْوَامَ وَقَتَلَهُمْ، أَتَظُنُّونَ أَنَّ هؤُلاَءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ السَّاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ؟ كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ» (لوقا١٣:١-٥)

بعد أن لُفِتَ إنتباهه إلى الأشخاص الذين عانوا من فظائع ارتكبتها الدولة (الشَّر الأخلاقي)، ذكر يسوع بدوره الأشخاص الذين ماتوا في كارثة طبيعية (الشَّر الطبيعي)؛ ثم فيما يتعلق بكلتا الحالتين، إنتقد الرأي الشائع بأن ضحايا هذه الأحداث غير العادية يجب أن يكونوا من الخطأة الفظيعين بشكل إستثنائي الذين

يعاقبهم الله على وجه التحديد. المعنى الضمني هو أننا نعيش في عالم يمكن أن تحدث فيه مثل هذه الأشياء، ولكن حدوثها لا يحدث دائمًا بشكل مباشر من قبل الله، على الرغم من أنه يتمتع بالسيادة على جميع الأشياء.

على الرغم من ذلك، يجب ألا يفوتنا تعليق يسوع الأخير في تلك المناسبة والذي يُظهر لنا أن هناك المزيد في هذه القضية، إن تجنَّب شخص ما إصابة الآخرين لا يعني أنهم أبرياء: «بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ». (سوف نبحث في مسألة التوبة لاحقًا).

مع قول كل ذلك، فمن الواضح أن هذا هو جزء من التعليم المسيحي، على الرغم من أنه ليس كل كارثة أو مرض هو قضاء الله (كما في حالة أيوب)، إلا أن البعض هم كذلك. أخبر بولس القائد المسيحي في الكنيسة الأولى في كورنثوس أن بعضًا منهم كان مريضًا نتيجة تأديب الله: أراد الله أن يقودهم للتوبة بعيدًا عن أسلوب حياتهم غير الأخلاقي. لكن بولس كان يكتب برؤية خاصة لشخص أوحيَ له من روح الله. ليس لدينا نفس السلطة لتحديد من يُعاقب بهذه الطريقة. إحذر من تفسير الألم الناجم عن الشَّر الطبيعي كعقاب إلهي. ولكن بالمثل، إحذر أيضًا من أي شخص يقول أنه ليس لله ما يقوله عن طريق هذا الوباء، لا سيما للمجتمعات الغربية التي أدارت ظهرها له إلى حد كبير باعتباره غير ذي صلة ثقافيًا.

لماذا لا يساعدك الإلحاد؟

من الجدير بالذكر أن بعض الملحدين يؤمنون بنوع من «القضاء والقَدَر»، وهذا هو ما يكمن وراء عبارة «أتاهم الشَّر».

يقودني ذِكر الملحدين إلى حقيقة أن الكثير من الناس يعتقدون أن الحل الوحيد لمشكلة الكارثة والشَّر الطبيعي هما التخلي عن الله واحتضان الإلحاد. ويأكدون بقولهم، إن الفيروسات التَّاجيّة والسرطان والتسونامي والزلازل تُظهر لنا أنه لا وجود لله. يجب أن نواجه حقيقة أن هذه هي الطريقة التي يكون عليها الكون: صعبًا وغير محسوس، ولا يهتم بشيء سواءً كنا نعيش أو نموت.

أشار فيلسوف التنوير الإسكتلندي ديفيد هيوم إلى المشاكل التي يجب على المسيحيين مثلي معالجتها. وبالإشارة إلى فيلسوف يوناني من القرن الثالث قبل الميلاد، الذي أدلى بالبيان التالي المقتبس على نطاق واسع:

«سؤال أبيقور القديم لم تتم الإجابة عليه بعد: هل الله راغب في منع الشَّر ولكنه غير قادر؟ ثم هل هو عديم القدرة؟ وهل هو قادر ولكن ليس على استعداد لمنع الشَّر؟ ثم هل هو حاقد؟ هل هو ذو قدرة وإرادة؟ فمن أين يأتي الشَّر إذاً؟»

ولكن أين ينتهي هذا المسار الإلحادي؟ إنها ليست سوى خطوة قصيرة من هنا إلى ردّ الفعل الإلحادي المتزمِّت لريتشارد داوكينز على واقع المعاناة:

«إن إجمالي حجم المعاناة سنويًا في العالم الطبيعي يفوق كل تفكير محترم. خلال اللحظة التي يستغرقها الأمر لتكوين هذه الجملة، تُؤكل الآلاف من الحيوانات وهي على قيد الحياة، ويهرب الكثيرون غيرها طلبًا للنجاة، وهم يرتعبون من الخوف، والبعض الآخر يُلتَهم ببطء من الداخل عن طريق صرير الطفيليات، وتَنفُق (تموت) الآلاف من كلّ أجناس الحيوانات بسبب الجوع والعطش والمرض. يجب أن يكون الأمر كذلك. إذا كان لدينا الكثير في وقت ما، فإن هذه الحقيقة ستؤدي تلقائيًا إلى زيادة عدد السكان إلى أن تستعاد الحالة الطبيعية للجوع والبؤس. في عالم من الإلكترونيات وجينات الأنانية والقوى الجسدية العمياء والتكاثر الجيني، سيتآذى بعض الناس، وسيكون آخرون محظوظين، ولن تجد أي سبب لذلك، ولا أي عدالة. إن الكون الذي نلاحظه يتمتع بالخصائص التي يجب أن نتوقعها على وجه التحديد إذا لم يكن هناك، في الأسفل أي قصد، ولا غرض، لا شرّ، ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة العمياء. إنَّ الحمض النووي لا يعرف ولا يهتم. والحمض النووي هو كذلك. ونحن نرقص على موسيقاه».

كيف يتفاعل المسيحي مع هذا الفكر؟ أول شيء يجب قوله هو أن نسخة داوكينز الحتمية للإلحاد تبدو هنا أنها تبغي إلغاء فئات الخير والشر واستبدالها

باللامبالاة العمياء التي لا ترحم، في عالم قاسٍ. ومع ذلك، فإن رفض الخير والشر يعني ضمنيًا أن أي حديث عن أن الفيروس التاجي سيء أو شرير لا معنى له (على الرغم من أنه من الصعب أن نتخيل أن داوكينز يمكن أن يصدِّق ذلك بالفعل).

ومع ذلك، فإن دوكينز يشير إلى نقطة خطيرة، يجب أن نسأل في ضوءها عما إذا كان نظام المعتقد الإلحادي ردّ فعل معقول للفيروس التاجي. إذا لم يكن هناك إله، فمن أين تأتي مفاهيم الخير والشر التي نمتلكها جميعًا في المقام الأول؟ لا يمكننا أن نقول إن الفيروس التاجي وتأثيراته «بأي حال من الأحوال» سيئان، لأن عواقبه، بما في ذلك الوفيات التي يسببها، هي ببساطة ذرَّات تعيد ترتيب نفسها.

كتب فيدور دوستويفسكي: «إذا لم يكن الله موجودًا فكل شيء مباح». ولتجنب أي سوء فهم، يجب القول أن دوستويفسكي لم يكن يعني أن الملحدين لا يمكنهم التصرف أخلاقيًّا. من الواضح أن الأمر ليس كذلك. في الواقع، يمكن للملحدين، وفي كثير من الأحيان، أن يُخجلوا المتدينين في سلوكهم الأخلاقي. من هنا نستنتج أنّ المنظور المسيحي في هذا هو أن جميع الرجال والنساء، سواء كانوا يؤمنون بالله أم لا، هم كائنات أخلاقية مصنوعة على صورة الله الخالق. لذلك يمكن لجميع البشر أن يتصرفوا أخلاقيًّا. لم يكن دوستويفسكي يتهم الملحدين بعدم وجود قناعة أخلاقية، بل كان يقترح شيئًا أكثر عُمقًا: أنه لا يوجد تفويض عقلانيّ لمفاهيم الخير والشر إذا لم يكن هناك إله. ومما له دلالته أنَّ بيان ريتشارد داوكينز يدعم ذلك دعمًا تامًّا.

وعلى الرغم من أن الشر الطبيعي وليس الأخلاقي هو موضوعنا الرئيسي هنا، إلا أنه من الجدير بالذكر أنه من وجهة نظر داوكينز، كان الإرهابيون ومهندسو الإبادة الجماعية في مجالات القتل في كمبوديا ورواندا يقومون ببساطة بتنفيذ برامجهم الوراثية الخاصة بهم: وكذلك كان ستالين وهتلر وماو في جرائمهم المروعة ضد الإنسانية. فإذا شعرت برغبة في قتل الأطفال من أجل المتعة، أفلا يكون هذا (من وجهة النظر هذه) ببساطة رقصًا على حمضك النووي؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا أحد منا يمكن أن يساعد في كونه ما يسميه البعض بشكل خاطئ «الشَّر». قد نقوم نحن وهم أيضًا بالإستسلام لأنفسنا دون تذمُّر. فالأخلاق لا معنى لها.

أعتقد أن هذا الرأي ببساطة غير صالح للحياة. وواقع الأمر أنَّ ريتشارد داوكينز هو نفسه دليل على ذلك. فإنَّ حجته تقوِّض واقعًا مثل الخير والشَّر. ولكن لماذا يبدو بعد ذلك أنه ينظر إلى هجمات ١١ سبتمبر والفظائع الأخرى على أنها شَرّ؟

الشيء التالي الذي يجب ملاحظته هو أن الغضب المُبرَّر ضد الشر الطبيعي أو الأخلاقي يفترض مسبقًا مِعيارًا من «الخير» الذي هو حقيقي وموضوعي مستقلّ عنّا، حتى نتوقع أن يتفق الآخرون معنا في إدانة أشياء معينة. هذه المعايير «غير محدودة»، أي أنها موجودة فوق مستوى الآراء الفردية. وعلى سبيل المثال، وبغض النظر عن نظرتنا إلى العالم، لا نتردّد بكل تأكيد في القول بأن الفيروس التاجي سيِّء.

ومع ذلك، إذا لم يكن هناك إله، فبالتالي لا توجد قيَم غير محدَّدة، فكيف يمكن أن يكون هناك أي معيار موضوعي للخير؟ إذا لم يكن هناك خير أو شَرّ؟ على أي حال، يختفي مفهوم الأخلاق، فالغضب الأخلاقي سخيف. إنَّ ما يسمى بِـ«مشكلة» الشَّر، الأخلاقية أو الطبيعية، تذوب في اللّامبالاة القاسية من الأمور غير المكترث بها.

يوافق الفيلسوف ريتشارد تايلور على ما يلي:

> «إن العصر الحديث، الذي رفض بشكل أو بآخر فكرة الشريعة الإلهية، حاول مع ذلك الإحتفاظ بأفكار الصواب والخطأ الأخلاقي، دون أن يلاحظ أنَّه بذلك إستبعد الله جانباً، وأبطل شروط معنى الحقّ الأخلاقي والخطأ كذلك... لا يحتاج المتعلمون أن يقال لهم عن ذلك شيئًا، ومع ذلك، فإِنَّ أسئلة كهذه لم يتم الرد عليها خارجًا عن الدين».

رأى الفيلسوف فريدريش نيتشه، في القرن التاسع عشر، بوضوح أكثر من أي شخص آخر عواقب التخلي عن الأخلاق الكتابية التي هي في صميم الحضارة الغربية. تنبأ بأن موت الله سيؤدي إلى ضرورة الداروينية للتعبير عن «إرادة القوة»، أي أن القوي يجب أن يقضي على الضعيف. فكتب:

> النَّهي الكتابي، «لا تقتل» هو جزء من السذاجة... إنَّ الحياة نفسها لا تعترف

بالتضامن، ولا بحقوق متساوية «بين الأجزاء السليمة والعليلة من أعضاء الجسد الحي: يجب على المرء أن يستأصل الأخير، أو أن يَهلك الكل».

إحتقر نيتشه الأخلاق المسيحية على أنها أخلاق العبيد وأشار إلى أن موت الله يعني موت الرحمة والعطف والغفران:

«عندما يتخلى المرء عن المعتقد المسيحي، يَحرم نفسه من الحقّ في الأخلاق المسيحية... فإنَّ الأخلاق المسيحية عبارة عن وصية: أصلها متسامي... إنها لا تمتلك الحقيقة إلا إذا كان الله حقيقة، إنها تقف أو تسقط مع الإيمان بالله».

في كتاب آخر، سأل نيتشه هذا السؤال: «ما قيمة الأخلاق على الإطلاق عندما تكون الحياة والطبيعة والتاريخ غير أخلاقية؟» هذا هو السؤال الذي يجب على كل ملحد أن يصارعه.

مشكلة المسيحيَّة

إنَّ الحقيقة هي أنَّ الأخلاق قائمة. نحن نعرف بأنفسنا أنَّنا كائنات أخلاقية بالخبرة المباشرة. كتب عالم الأخلاق البارز في أكسفورد «جيه ماكي» ما يلي:

«تشكل [الأخلاق] مجموعة غريبة من الصفات والعلاقات لدرجة أنه من غير المرجح أن تكون قد نشأت في المسار العادي للأحداث، بدون إله قوي كل القوّة لخَلقها. إذا كانت هناك إذاً، مثل هذه القيم الموضوعية الإرشادية الجوهرية، فإنها تجعل وجود إله أكثر إحتمالًا مما كان سيكون بدونها. وهكذا لدينا، بعد كل شيء، حجة يمكن الدفاع عنها من الأخلاق عن وجود إله».

كان ماكي نفسه ملحدًا وقد نفى وجود مثل هذه المعايير الأخلاقية المطلقة. ومع ذلك، يمكننا جميعًا بالتأكيد أن نرى بأن بعض الأشياء مثل، تعذيب الرُّضَع، أمر خاطئ تمامًا، بل خطأ مطلق. أن تكون قادرًا على قول ذلك هو ما نتخلى عنه إذا اعتنقنا الإلحاد وكنَّا مستعدين لإتباع منطقه.

إنَّ إبعاد الله من المعادلة لا يُبعد الألم والمعاناة. إنه يتركها دون مساس. لكن إبعاد الله يُبعد شيئًا آخر، على الأخص أي نوع من الرجاء المطلق. هذه مسألة سنعود إليها لاحقًا. لكننا لم نتعامل بعد مع السؤال الذي طرحه ديفيد هيوم بفاعلية: هل يمكن التوفيق بين الفيروس التاجي ووجود إلهٌ مُحِبّ؟

٤. كيف يمكن أن يكون هناك فيروس كورونا إذا كان هناك إلهٌ مُحِبّ؟

من أجل معالجة هذا السؤال (الذي سيأخذ الفصلين التاليين)، سنفكر أولاً في ثلاثة أشياء: أولاً، طبيعة الفيروسات بشكل عام؛ ثانيًا، طبيعة الإنسانية؛ وثالثًا، ما يقوله الكتاب المقدس عن سبب كون الأمور على ما هي عليه.

طبيعة الفيروسات:

لمساعدتنا على التفكير في الفيروسات، إليك مقتطفات من مقال تعليمي من المنتدى الإقتصادي العالمي كتبه بيتر بولارد، الأستاذ المساعد في معهد الأنهار الأسترالية، جامعة جريفيث. يقول بولارد:

> «كلمة» فيروس «تدُبّ الرُّعب في قلوب معظم الناس. إنها تستحضر صور الإنفلونزا أو فيروس نقص المناعة البشرية أو الحمى الصفراء أو الإيبولا. بالطبع نحن قلقون بشأن هذه الفيروسات، فهي تجلب لنا المرض وأحيانًا موتاً مؤلماً للغاية».
>
> «لكن الأنواع الفيروسية ال٢١ التي تسبب خراب جسم الإنسان تمثل جزءًا ضئيلًا من ١٠٠ مليون نوع فيروسي على الأرض. ومعظم الفيروسات ضرورية لوجودنا...!»
>
> «إن العدد الهائل لهذه الفيروسات «الجيدة» أمر مذهل. غالبًا ما تتركّز في بحيرة أو نهرًا منتجةً ١٠٠ مليون لكل مليلتر، أي أكثر من أربعة أضعاف سكان أستراليا الذين يمكن ضغطهم في ١/٤ ملعقة صغيرة من الماء... إنَّ الفيروسات ليست كائنات حية. إنها ببساطة أجزاء من المواد الجينية (*DNA* أو *RNA*) مغلّفة بالبروتين، والتي تتصرف مثل الطفيليات. وتلتصق بخلاياها المستهدفة (المضيفة لها)، وتحقن مادتها الوراثية، وتستنسخ ذاتها بإستخدام مسارات (الإيض) للخلايا المضيفة، ثم تتناثر الفيروسات

الجديدة من الخلية، عندما تنفجر الخلية وتطلق مئات الفيروسات...

«إنها مزيج من نمو بكتيري سريع، وتُعتبر العدوى الفيروسية التي تحافظ على عمل النُظُم البيئية... وبالتالي تُعدّ الفيروسات جزءًا مهمًا من إعادة التدوير غير العضوي. لذلك، في حين أنها صغيرة وتبدو غير ذات أهمية، تلعب الفيروسات في الواقع دورًا عالميًا أساسيًا في إعادة تدوير العناصر الغذائية من خلال شبكات الغذاء. لقد بدأنا للتو في تقدير مدى تأثيرها الإيجابي على بقائنا.

«شيء واحد مؤكد، هو أن الفيروسات تعتبر أصغر أبطالنا المجهولين».

وبالمثل، ففي مقال بعنوان «الفيروسات تستحق سمعة أفضل»، تقول عالمة البيئة الفيروسية في جامعة ولاية بنسلفانيا مارلين روزينك أن الفيروسات ضرورية للحياة، وأن ١٪ منها على الأقل (في أعلى تقدير) سبب المرض، أي أنها ضارة لمضيفيها.

لذا، تكون الفيروسات ذات فائدة رئيسية، ولكن نسبة صغيرة منها، مثل COVID-١٩، ضارة بالبشر. فإنَّ COVID-١٩ هي واحدة من عائلة كبيرة من الفيروسات التَّاجيّة المسؤولة عن نزلات البرد والإنفلونزا والإلتهاب الرئوي وأمراض الجهاز التنفسي الأخرى.

تبيَّن أن هذا يشبه إلى حد كبير الوضع مع الزلازل. ذُكر في كتاب «الأرض النادرة Rare Earth»، للجيولوجي بيتر وارد والفلكي دونالد براونلي، وكلاهما من جامعة واشنطن، في فصل بعنوان «الأهمية المدهشة لعملية الصفائح الأرضية». حجة هي أنه إذا توقفت الصفائح الأرضية عن الحركة، فإن الإنقراض الجماعي للحياة على الأرض سيحدث في نهاية المطاف. هناك عدة أسباب لذلك. فإنَّ الصفائح الأرضية ضرورية لتشكيل القارات والحفاظ على التوازن بين اليابسة (الجبال) والبحر. كما أنه يعمل كمنظم حراري عالمي عن طريق إعادة تدوير المواد الكيميائية الضرورية للحفاظ على مستوى متوازن بشكل موحد من ثاني أكسيد الكربون.

علاوة على ذلك، يجادل وارد وبراونلي بأن الصفائح الأرضية تحافظ على المجال المغناطيسي للأرض، مما يحميه من الأشعة الكونية التي قد تكون قاتلة للحياة. إستنتاجاتهما بما يلي: «قد يكون أن الصفائح الأرضية هي المطلب الرئيسي للحياة على كوكب ما وأنه من الضروري الحفاظ على العالم مزودًا بالمياه».

إذًا، يبدو أن كل من الفيروسات والزلازل ضرورية للحياة. إذا كان هناك إله خالق، فهو بحكم تعريفه مسؤول في نهاية المطاف عن وجودها.

ولكن لماذا يجب أن تكون الفيروسات موجودة على الإطلاق؟ من المؤكد أنه لا يكفي أن نقول، كما قد يقول البعض، إن جائحة الفيروس التاجي هي مجرد علم أحياء يفعل ما يفعله علم الأحياء؟ بل بالتأكيد يجب أن يكون هناك أكثر من ذلك.

من المُسلَّم به هو أن العلم يوضح لنا أن معظم الفيروسات مفيدة وبعضها ضروري للحياة، فلماذا يجب أن تكون هناك مسبِّبات للأمراض التي تعيث فسادًا؟ إنَّ السؤال الرئيسي بالنسبة للمؤمنين هو هذا: ألا يستطيع الله أن يصنع عالماً بدون مسبِّبات للأمراض الفيروسية؟

هذا يقودنا إلى فئة كاملة من الأسئلة المماثلة. ألم يكن بإمكان الله أن يصنع كهرباء غير خطرة أو نارًا لا تحرق؟ ألا يمكن أن يكون الله قد صنع عالمًا عضويًا بدون إفتراس؟ ألا يمكن أن يصنع الله حياة لا يكن بها خطأ أبدًا، والفيروسات التي هي مفيدة دائمًا؟ ألا يستطيع الله أن يصنع مخلوقات لم تقترف أي خطأ أبدًا؟

(بعد كل شيء، وعلى الرغم من أن الفيروس التاجي خطير، إلا أنه لن يقتل أكبر عدد من الناس هذا العام مثلما يفعل بنو البشر).

طبيعة الإنسانية

ربما نجد أنّ آخر هذه الأسئلة قد تكون لها إجابة أكثر من الأسئلة الأخرى. يكون الجواب عليها هو بوضوح؛ نعم. بالتأكيد، قد صنع الله أشياء لا تخطئ أبداً أخلاقيًّا. فالحيوانات، على سبيل المثال، ليست كائنات أخلاقية. فإذا كان الأسد يفترس حارس حديقة الحيوانات، فلا يمكن إتهام الأسد بالقتل. إنه ليس مخلوقًا أخلاقيًّا.

لقد كان بإمكان الله أن يصنع عالماً من الروبوتات التي تتبع برامجها المُدمجة تلقائيًّا. لكن هذا العالم لم يكن ليشملنا كبشر. وواقع الأمر أن الناس الذين يرغبون في أن يسكنوا عالمًا بدون إمكانية الشَّر هم في الواقع يتمنون لأنفسهم أن يَتركوا الوجود. يعود السبب في ذلك إلى أن واحدة من أعظم الهبات التي قدمها لنا الله هي الإرادة الحرَّة. يمكننا أن نقول نعم أو لا، وهذه القدرة تفتح أمامنا أشياء رائعة مثل: المحبة، الثقة، العلاقات الحقيقية مع الله ومع بعضنا البعض. ومع ذلك، فإن هذه القدرة الرائعة والجيدة هي نفسها تجعلنا قادرين على ارتكاب الشَّر، بالرغم من أنها لا تجيز لنا فعل الشَّر.

هذه نقطة مهمة للغاية، والتي تطرَّق إليها اللَّاهوتيون من خلال التمييز بين إرادة الله المتساهلة ــ أي واقع أن الله خلق كونًا يمكن أن يكون فيه شَرّ، وإرادة الله التوجيهية، تلك الأفعال التي يقوم الله بها بفاعليَّة. إن العهد الجديد يبيِّن بوضوح أن الله ليس أبدًا مُسبِّب الشَّر، لذلك فهذا ممكن في العالم الذي صنعه، مع أنَّ هذه ليست نيته للعالم. هذا يعني أن البشر لديهم قدْر معين من الإستقلال يسمح للأمور بأن تسوء. يعتقد ريتشارد داوكينز، وكذلك العالم الراحل ستيفن هاوكينج، أننا نعيش في عالم حتميّ. لكننا لسنا كذلك، لقد أعطى الله البشر خيارًا، لكنّهُ لا يزال صاحب السيادة، والكتاب المقدس يعلن عن كليهما بوضوح. يختلف المسيحيون بالضبط حول كيفية صيرورة ذلك، لكن هذا ليس المكان المناسب لبحثه هنا. هدفنا هنا هو ببساطة أن نلاحظ أن الله لم يُفاجأ بالفيروس التاجي؛ يمكنه أن يعمل لأجل الخير حتى في زمن الشَّر، ولن تُحبط خططه بسببه، بالرغم من أنه في حالات مثل الأزمة الحالية قد يكون من الصعب جدًا علينا أخذ هذا في الإعتبار. في الوقت نفسه نحن مسؤولون عن ردود فعلنا للأزمة ولبعضنا البعض، لأنه وهبنا تلك الحرية.

نحن نعيش في عالم حيث تسير الأمور بشكل خاطئ، وحيث يتمكن البشر من اختيار، إمّا أن يرتكبوا الخطأ، أو يتبعون الصَّح. لماذا يتصرَّف العالم على هذا النحو؟ إنَّ إجابة الكتاب المقدس عن ذلك هي كالتالي:

لماذا تسير الأمور على هذا النحو؟

فكِّر بالأمر على هذا النحو. فعندما خلق الله البشر ليعيشوا في خليقته «الحسنة جداً»، وهبهم هبة رائعة من الإرادة الحرَّة التي جعلتهم كائنات أخلاقية. ولهذا السبب، كان هناك إحتمال أن يقع إنهيار أخلاقي من خلال إساءة إستخدام تلك الحرية. وهذا ما حدث، كما يصور الأصحاح الثالث بوضوح من السِفر الأول من الكتاب المقدس، «سفر التكوين».

يقول تكوين٣ أن العصيان البشري نشأ عن خلاف أساسي مع الله حول طبيعة الحياة وإمكانية الموت الخطيرة. لقد حذر الله الإنسان الأول صراحة، آدم وحواء، من أنهما إذا أكلا من ثمرة شجرة معرفة الخير والشَّر، والتي أخبرهم أنها محظورة. بعبارة أخرى، إذا تصرفوا بعصيان صريح ضدَّهُ وبإستقلالية، فإنهم سيموتون بالتأكيد (تكوين٢:١٧).

لا نحتاج إلى مناقشة طبيعة ثمر الشجرة، أو التساؤل عن الجودة التي قد تكون ليتمتع بها الإنسان بحيث ينتج عن أكلها معرفة الخير والشَّر. إن تفسيرها بهذه الطريقة يْعتبر تفويتًا للقصد من القصة. فالأكل من ثمر أي شجرة، هو بالتأكيد كفعل أي شيء على الإطلاق. إنَّ أيَّة دوافع تتعارض مع إرادة وكلمة خالقنا وحاكم هذا العالم هي في حد ذاتها جُموح. إنه إطار ذهني يؤكد إرادة المخلوق ضد الخالق، الذي يستبعد الخالق جانباً ويجعل من كل شيء مركزه ويسعى بغرور وراء مصالحه الأنانية وتفسيره للحياة. هذا مبدئياً، ما يسمّى «الخطيئة».

ثم أنَّ الخطيئة، كما حذَّر الله هؤلاء البشَر، تؤدي تلقائياً إلى الموت. لا حرج في المتعة الجسدية أو المتعة الجمالية في حد ذاتها، ولا في اكتساب الحكمة والمعرفة الأخلاقية. لكن لنفترض أن هذه الأشياء هي ملخَّص الحياة كلّها، ولنفترض أنه طالما يمكن للمرء أن يتمتع بملء هذه الأشياء والإستمتاع بالحياة إلى أقصى حدّ بشكل مستقل عن الله وإهمال حمايته أو كلمته، فهذا الأمر يُعتبر بالأساس خِداعًا مأساويًّا. إن الله ليس فقط مصدر كل الأشياء الصالحة التي نتمتع بها؛ بل هو الخير الأسمى الذي يعطي المعنى والأهمية المطلقين لجميع العطايا الصالحة التي يقدمها لنا.

إنَّ ما حدث في تكوين٣ هو أن البشر رفضوا الله، ودخلت الخطية إلى العالم. كانت العواقب رهيبة. صار هناك موت، أوَّلاً بالمعنى الروحي بتصدُّع العلاقة بين البشر والله، وبعد ذلك الموت الجسدي.

علاوة على ذلك، فقد تضرَّرت الطبيعة نفسها بسبب هذا الحدث نفسه، وهذا يعيدنا حالًا إلى موضوعنا الرئيسي. يخبرنا سفر التكوين أنه عند تمرد الإنسان، بالرغم من أن البشر اضطُروا للإنفصال عن الشركة مع الله، لكنهم لم يُمنعوا عن تحمُّل مسئوليتهم في الإعتناء بالأرض بإشراف الله، فقد سمح لهم بالحفاظ على مسئوليتهم في تطوير الأرض. ولكن في الوقت نفسه، «إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا (الله) عَلَى الرَّجَاءِ» (رومية٨:٢٠).

إنَّ كلمة «البُطلْ» في اليونانية الأصلية، (mataiotēs) تحمل معنى أن شيئًا ما «باطل»: أي أنه لم يحقِّق الهدف الذي صُمِّم من أجله. عندما يعبِّر هذا المقطع أن الخليقة تعرَّضت للبُطل «ليس بسبب أي خطأ»، إنما يشير إلى اللعنة التي وضعها الله على الأرض بسبب خطيئة آدم:

«مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ... وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ» (تكوين٣:١٧-١٨).

إنَّ العلاقة البشرية المقطوعة مع صانعها كان لها عواقب أوسع مما على البَشَر أنفسهم. إن الذين يجذِّفون في القارب والذين يرفضون التجذيف بالطريقة الصحيحة فذلك لن يؤثر فقط على أنفسهم بل أيضًا على جميع من في القارب، وقد يضر حتى بالقارب نفسه. وبالمثل، فإن رفض البشرية للبقاء في المكان المخصص لها التي صنعها الله لأجل معرفته والإستمتاع بالخليقة وفقًا لقوانين صانعها؛ يعني أن خليقة الله الصالحة جدًا أصبحت معيبة وممزقة.

بالطبع ليس هناك شك في أنه على مر القرون كانت هناك خطوات مذهلة في تطوير الأرض ومواردها. ومع ذلك، لم يكن النجاح كاملاً أبدًا: تفكَّر في العديد من الحضارات التي ازدهرت ذات مرة ولكنها اضمحلَّت الآن في طيّات القرون الماضية. مرَّة بعد مرَّة، كُسِرت الطبيعة وأعاقت التقدم البشري بالحسك

والأشواك والأشغال التي تكسر الظهر، والآفات، والمرض، والأوبئة، والجفاف، والمجاعات، والزلازل، والبراكين وما إلى ذلك، مقرونة للأسف بالقوى المدمرة التي أطلقتها الأنانية والجشع والفساد الأخلاقي.

الخط الفاصل بين الخير والشر

لا أحد منا يستطيع أن يناقش بصدق مشكلة شَرّ وألم العالم كما لو كنا ببساطة متفرجين على ظاهرة خاصَّة بنا تمامًا.

كتب المؤلف الروسي ألكسندر سولجينتسين، الذي نجا من معسكرات ستالين في جولاج:

> «لو كان الأمر كله بهذه البساطة! لو كان هناك فقط أناس غادرين في مكان ما يرتكبون أعمالًا شريرة، وكان من الضروري فصلهم فقط عن الآخرين وتدميرهم! لكن الخط الذي يفصل بين الخير والشر يخترق قلب كل إنسان. ومن ذا الذي يكون على إستعداد لتدمير قطعة من قلبه؟ فخلال حياة أي قلب يستمر هذا الخط في تغيير مكانه. وفي بعض الأحيان يضطَّر إلى التوجُّه بإتجاه واحد بواسطة شرّ مندفِع، وفي أحيان أخرى يتحول بأن يأذن بمساحة كافية للصلاح أن يزدهِر. إنَّ نفس الإنسان الواحد من مختلف الأعمار، في ظل ظروف مختلفة، يكون إنسانًا مختلفًا تمامًا... لكن إسمه لا يتغير، ولهذا الإسم ننسب كل شيء، الخير والشَّر».

كان سولجينتسين على استعداد ليقول بصراحة ما نعرفه جميعًا بالفطرة: تمامًا كما أن هناك خيرًا وشَرًّا في الخلق وفي البشرية بشكل عام، لذلك هناك خير وشرّ في كل واحد منا. نحن أيضا جزء من المشكلة.

يقدم الفيلسوف الملحد جون جراي هنا، دعمًا غير متوقع:

> «إن الحاجة الأساسية هي تغيير النظرة السائدة للبشر الذين نعتبرهم مخلوقات جيدة بطبيعتها ومُثقَلة على نحو لا يمكن محاسبتها بتاريخ من العنف والقمع. هنا نصل إلى مركز الواقع ونقطة العثرة الرئيسية للرأي السائد: تأكيدها على الخلل الفطريّ للبشر.

«لقد اعتبر جميع المفكرين تقريبًا ما قبل العصر الحديث أن الطبيعة البشرية ثابتة ومُعيبَة، وفي هذا كما في بعض الطرق الأخرى كانوا قريبين من حقيقة الأمر. لا يمكن لأي نظرية سياسية أن تكون ذات مصداقية تفترض أن الدوافع البشرية حميدة بشكل طبيعي أو مسالمة أو معقولة».

ها هنا ملحد يدعم بشكل أساسي تعاليم سفر التكوين حول آثار تمرد البشر على الله فيما يتعلَّق بحقيقة الخطيئة في العالم. وما أن يتيسَّر لنا فهم حقيقة أننا مَعيبون، فقد تتكون صياغة أكثر واقعية لمشكلة الشر الأخلاقي وهي: «أفكر وأقوم بالشر. إذا كان هناك إله فلماذا يتسامح معي؟».

سؤال مختلف

من الواضح بالتأكيد أن هناك عيوبًا عميقة في الطبيعة البشرية وفي الطبيعة المادية. إنَّ العالم حافلٌ بالسلوك البشري العنيف وغير الأخلاقي والزلازل والتسونامي والسرطانات ووباء الفيروس التاجي.

الآن، يمكننا أن نناقش ما قد يفعله أو فعله الله الصالح المحب كلّي القدرة. لكن الخبرة تشير إلى أنّهُ ليس أيًّا منّا لم يكن راضيًا أبدًا عن نتيجة هذه المناقشة بالذات.والسبب في ذلك هو أنه، بغض النظر عما نقوله، فنحن في مكاننا باقون وهكذا هو العالم. نحن جميعًا نواجَه نفس نوع الصورة المختلطة التي تقدمها الكاتدرائية المدمَّرة. مع كل جمال الزهرة المتَفتِّحة بإتجاه قرص الشمس، وكل قُبح الفيروس التاجي الذي يدمر الجهاز التنفسي البشري.

بصفتي عالم رياضيات، اعتدت على الحقيقة المتمثّلة في أننا عندما كنَّا نحاول أحيانًا وعلى مدى سنوات عديدة، حلّ سؤال معيَّن دون أن نحرز نجاحًا، نبدأ بالتفكير في أنه من الأفضل أن نوجِّه تفكيرنا وأنظارنا نحو سؤال مختلف.

وهناك سؤال آخر يمكننا طرحه. إذا قبلنا، أنّهُ يجب القبول، أننا في عالم يقدم لنا صورة لكل من الجمال البيولوجي ومسببات الأمراض القاتلة، فهل هناك أي دليل على وجود إله يمكننا الوثوق به في هذه الآثار، وفي حياتنا ومستقبلنا؟

٥. دليل المحبَّة

نحتاج إلى دليل مقنع على صلاح شخصية الله إذا أردنا أن نؤمن به. لذلك، أَطلُب منكَ في هذه المرحلة أن تستمع إلى جوهر التعليم المسيحي، سواء كُنتَ على دراية به أم أنه جديد بالنسبة لك، وأن تحاول فهمه قبل الإستنتاج بأن الإيمان بالله لا يتفق مع وجود الفيروس التاجي، أو أي جائحة أو مرض أو كسر في العالم الطبيعي.

تدَّعي المسيحية أن الإنسان يسوع المسيح هو الله المتجسِّد، الخالق صار إنسانًا. وفي قلب الرسالة المسيحية نجد موت يسوع المسيح على صليب خارج القدس تمامًا. إنَّ السؤال الذي طرَح نفسه مرة: إذًا كان الله قد تجسَّد، فماذا كان يفعل على الصليب؟ حسنًا، هذا يعني على الأقل أن الله لم يبق بعيدًا عن الألم والمعاناة البشرية، ولكنه اختبره هو أيضًا.

لذلك، فإن المسيحي ليس بذلك الشخص الذي يحلُّ مشكلة الألم والمعاناة والفيروس التاجي، بل هو الشخص الذي أصبح يحب ويثق بالله الذي عانى هو نفسه. هذه إذًا نصف القصة فقط، فلو كانت تلك المعاناة هي نهاية ما فعله يسوع، لما سمعنا عنها أبداً. لكنها لم تكن النهاية. لقد كانت الرسالة التي جعلت القدس تضجّ في عيد الفصح الأول بعد الصَّلب، هي تلك الرسالة التي لفتت إنتباه عالم القرن الأول، وهي أن يسوع قد غلب الموت، وأنَّهُ قام من الأموات وهو سيكون أخيرًا ديَّان الإنسانية.

لا يمكن المبالغة بأهمية هذا الحَدَث. إنه يعالج صعوبة أساسية لا تستطيع النظرة الإلحادية للعالم التعامل معها، إنها مشكلة العدالة النهائية. وكما نعلم جميعا، عانى ملايين لا حصر لهم من البشر عبر التاريخ من ظلم فادح، وماتوا بعد حياة البؤس دون أي تعويض. لا شك من أنّهُ يصح قول هذا أيضًا عن العديد من ضحايا الفيروس التاجي.

هؤلاء الناس لم يحصلوا على العدالة في هذه الحياة. وبحسب الإلحاد، بما أن الموت هو النهاية، فلا حياة أخرى يمكن أن تتَحقَّق فيها العدالة. فإذا لم يكن

هناك ديان أبدي، فلن تكون هناك عدالة أبديّة. لكن القيامة تعلن أن العدالة ليست وهمًا وأن رغبتنا في العدالة ليست عبَثيَّة. سيُقدَّم المُعتدون والإرهابيون والرجال والنساء الأشرار في هذا العالم إلى العدالة الإلهية ذات يوم.

عندما أحاول إيضاح هذه النقطة للملحدين، غالبًا ما يقولون أن الشيء الذي يجب القيام به هو العمل من أجل العدالة في هذا العالم. أنا بالطبع أوافقهم الرأي. إنَّ العمل من أجل العدالة هو واجب مسيحي. لكنني أشير لهم أيضًا أن هذا لا يغطي أي مسافة نحو حل مسألة العدالة الأبدية. إنَّ الإلحاد، بحكم تعريفه، لا يعرف أحدًا. الإلحاد إهانة لإحساسنا الأخلاقي.

على النقيض من ذلك، فإن نظرة الكتاب المقدس هي أن العدالة الأبديّة حقيقية للغاية، وأنَّ الله هو السلطة الكامنة وراء القانون الأخلاقي، وهو سيكون المدافع عنها. وبالتالي، سيكون هناك حكم نهائي، عندما يتم تحقيق العدالة الكاملة فيما يتعلق بكل ظلم تم ارتكابه منذ بدء الحياة على الأرض وحتى نهايتها، فالعدالة ليست مهزلة.

عندما ألقى بولس رسول المسيحية محاضرة للفلاسفة في مجلس أريوسباغوس في أثينا، أخبر جمهوره أن يسوع قد قام من الأموات وعُيِّن ديَّانًا للعالم، هذه الحقيقة تضمن أنه سيكون هناك في نهاية المطاف إجابة نهائية لأعمق أسئلة إنسانية.

هناك ميلٌ بشريّ للرغبة في تحقيق العدالة، ولكن هناك أيضًا إتجاهًا للرَّد سلبيًا على رسالة العدالة المطلقة، لأنها تثير مسألة موقفنا أمام الله. يقول البعض: «أنا لا أستطيع أن أؤمن بإلهٍ مثل هذا»، حتى وهُم يحتجُّون على الشر الأخلاقي ويتهمون الله بالفشل في التدخل! هنا تكمُن المشكلة في استجابتنا الطبيعية لحكم الله المستقبلي: نحن نرحب بتدخل الله فقط طالما أنه تدخل في حياة الآخرين وليس في حياتنا.

الحقيقة هي أننا نميل إلى رؤية الشر في الآخرين وليس في أنفسنا. لذلك،

عندما نفكر في ما يجب أن يفعله الله، فإن معظمنا يرى أن الله يجب أن يتخلص من الأشخاص الأشرار من حولنا، ولكن ليس نحن. بعد كل شيء، نحن لسنا سيئين مثل كل هؤلاء.

يعلم الكتاب المقدس، مع ذلك، أن «الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ». لم يحافظ أي منّا على معاييرنا الأخلاقية الخاصة، ناهيك عن معايير الله. والوصايا العشر تقول لنا عن ذلك بوضوح تام. لذلك، نحتاج جميعًا إلى حلّ لمشكلة الخطيئة والشعور بالذنب الذي يفصل بيننا وبين الله، سواء علمنا ذلك أم لا.

وبحسب الإيمان المسيحيّ، فإن هذا الحلّ يكمن مرة أخرى في الصليب وقيامة يسوع. إن هذه الأحداث لا تفتح لنا ببساطة، طريقًا إلى مشكلة الشَّر والألم وحل مشكلة العدالة. بل إنها تُظهر لنا ما يعنيه إسم «يسوع»، «لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ» (متى١:٢١). بسبب موت يسوع وقيامته، فإن الذين يتوبون عن شرهم وإسهامهم في الألم والمعاناة الإنسانية، أولئك الذين يُؤمنون بالمسيح كربّ لحياتهم يحصلون على الغفران؛ سلام مع إله شخصيّ خالق الكون وحافظه، حياة جديدة مع سلطة جديدة؛ لقد وعدنا بعالم لن تكون فيه معاناة بعد الآن. لا تتنافس المسيحية هنا مع أي فلسفة أو دين آخر، وذلك لسبب بسيط هو: أن لا أحد يقدِّم لنا الغفران والسلام مع الله الذي يمكن معرفتهُ في هذه الحياة وسيبقى إلى الأبد.

فالمؤمن المسيحي، إذن، ليس الشخص الذي حل مشكلة المعاناة بل الشخص الذي جاء ليحب ويثق في الله الذي عانى من أجلهم.

إثنان من التيجان

فكيف يمكن أن يساعدنا هذا على التعامل مع الكوارث والأوبئة؟

يُدعى الفيروس التاجي بهذا الإسم لأنه يشبه بشكل واضح التاج («الإكليل» باللاتينية). التاج هو رمز للقوة والسلطة، بالتأكيد فإنَّ لهذا الفيروس قوة هائلة علينا نحن البشر. إنه غير مرئيّ بالعين المجردة، ومع ذلك فكر فقط في ما أُجبِرَ الملايين، بل المليارات، منا على القيام به أو عدم القيام به. كما أنه يذكرنا تذكيرًا

قويًّا بضعفنا. من السهل أن ننسى أننا بشر. فإنَّ الفيروس التاجي هو دليل على أن علاقتنا مع الخَلق وعلاقة الخَلق معنا مضطربة وأن هذا ليس مصادفة.

لكن الأمل قائم في تاج آخر، هو إكليل الشوك الذي وضِع بقسوة وفظاظة على رأس يسوع عند محاكمته قبل إعدامه.

يُظهر لنا هذا التاج مدى العمق الفاصل بين الخالق والمخلوق. الأرض هي خليقة الله وليست خليقتنا، نحن لسنا مالكيها، لكننا نحاول أن نتملّكها. نحن فقط وكلاء مشرفون، وفاشلون في ذلك، لقد تسبب الكثير منا بفوضى في حياتنا وحتى في حياة الآخرين، ناهيك عن الأشياء التي فعلناها بالكوكب. لا يمكن أن يكون هناك فردوسان للبشر، واحد في شركة مع الله وآخر بدونه. إنَّ الفيروس التاجي أزال بسرعة هائلة الوهم القائل بأنه يمكننا بناء الكمال على الأرض، وتحويل استجاباتنا التي تفتقر إلى الحكمة في البداية وحتى الرِّضى، إلى خوف حقيقي وإحباط وغضب.

في عالم مُمزَّق، يتضرر من عواقب الخطيئة البشرية والألم والمعاناة ذلك أمر لا مفرّ منه. ربما اختبأنا من هذا الواقع حتى انتشر الفيروس التاجي في جميع أنحاء العالم. إلا أننا لا يمكننا تجاهله، ولا الأسئلة الكبيرة حول الحياة والموت التي يثيرها. ها هو CS Lewis مرة أخرى يقول لنا:

«يمكننا تجاهل حتى المتعة. لكن الألم يصر على حضوره. إنَّ الله يهمس لنا في ملذاتنا، يتكلم في ضميرنا، لكنه يصمت في آلامنا: هذا هو مكبر الصوت لديه لإثارة عالم أصم».

ربما يعمل الفيروس التاجي كمكبر صوت ضخم، يذكرنا بالإحصائيات النهائية، أن يموت واحدًا من كل واحد منا. فإذا كان هذا يدفعنا إلى النظر إلى الله الذي ربما نكون قد تجاهلناه لسنوات، ولكن من كان يضع تاجًا من الشوك ليعيدنا بعد الموت إلى علاقة مع نفسه وإلى عالم جديد غير محطَّم، فإن الفيروس التاجي، على الرغم من الخراب الذي ألحقه بالبشَر، قد خدم غرضًا صحيًا للغاية.

٦. الفرق الذي يصنعه الله

كيف يجب أن يستجيب المؤمنون المسيحيون للوباء؟ هناك عدة مستويات مختلفة للإجابة على هذا السؤال.

إقبَل النُصح

- **أولاً**، على المستوى العملي، سيكون من الحكمة أن ننتبه لأفضل نصيحة طبية تُعلن لنا اليوم. فإنَّ المشكلة التي تنشأ هنا هي عندما تكون هذه النصائح غير متناسقة، أو عندما تكون مشوَّشة، كما كانت سمة بعض نشرات الأخبار.

هكذا ومن أجل الحد من إنتشار الفيروس، يتم فَرض الحجر الصحي على الأشخاص الأكثر عرضة للخطر، وخاصة كبار السن والأشخاص الذين يعانون من حالات طبية كامنة في القلب والجهاز التنفسي. من المثير للإهتمام، أنّهُ في العصور القديمة من الكتاب المقدس، تم توجيه شعب إسرائيل أيضًا نحو الحاجة إلى الحجر الصحي لمنع إنتشار الأمراض المعدية. حتى أن سِفر اللّاويين في العهد القديم نصَّ على أن يتم عزل لمدّة سبعة أيام للمصابين ببعض الأمراض، ولفترة غير محددة لبعض الأمراض الأخرى.

إنَّ تجاوبًا من هذا القبيل، بناءً على نصيحة طبية، ليس بالطبع دليلاً على عدم الإيمان. يمكن لله أن يحمينا ويشفينا، لكنه يتوقع منا أن نكون حكماء ونستخدم كل الموارد التي قدمها لنا، بما في ذلك الطبّ. والتباعد الإجتماعي ليس تعبيرًا عن الأنانية بل عن محبة الجيران بما يكفي لحمايتهم.

إنَّ محبة الجار تعني أيضًا أن أولئك الذين في مخاطرة ضئيلة، لديهم دور مهم للقيام بزيارة المعرضين لمخاطرة كبيرة (حيثما تسمح الظروف واللوائح)، ومساعدتهم في التسوّق وتوفير شركة في أشد الحاجة إليها، حتى لو كان وقتهم محدودًا.

- **ثانيًا،** كتب سي إس لويس ذات يوم مقالة رائعة عن كيفية إستجابة المسيحيين لوجود أسلحة ذرية. لقد اختصرتها أدناه، ولكن لمساعدتنا في تطبيقها على وضعنا الخاص. لقد قمت بإدراج «فيروس كورونا» أو «فيروس» أو «جائحة» بين قوسين حول النقاط ذات الصلة لإعطاء الفكرة:

«بطريقة ما، نفكِّر كثيرًا جدًّا في القنبلة الذرية [فيروس كورونا]». كيف يمكننا أن نعيش في عصر [جائحة] الذَّرة؟» إنَّني أُغرى للرَّد :لماذا، لو كنت تعيش في القرن السادس عشر عندما كان الطاعون يجتاح لندن كل عام تقريبًا، أو لو كنت تعيش في عصر الفايكنج[1] عندما كان يغزو المهاجمون من الدول الإسكندناڤية وينحَرون حنجرتك في أي ليلة؛ أو في الواقع، لأنك تعيش بالفعل في عصور مثل: مرض السرطان، مرض الزهري، الشلل، الغارات الجوية، حوادث السكك الحديدية، وحوادث السيارات».

«وبعبارة أخرى، لا تدَعنا نبدأ بالمبالغة في حداثة وضعنا. صدقني، سيِّدي أو سيِّدتي العزيزة، لقد تم الحكم عليك أنت وجميع من تحب بالإعدام قبل وجود القنبلة الذرية [فيروس كورونا]: وكانت نسبة كبيرة منا ستموت بطرق غير سارَّة. بيد أننّا كنا نتميَّز، في الواقع، بتميُّزٍ كبير عن أسلافنا، بأنّهُ كان يتوفَّر لدينا التخدير الذي لا يزال ساريًا. من المضحك تمامًا أن تبدأ بالتذمُّر والتعبير بوجوه طويلة لأن العلماء [فيروسات الكورونا] أضافوا فرصة أخرى للموت المؤلم والمبكر لعالم كان مليئًا بالفعل بهذه الفرص ولم يكن فيه الموت نفسه فرصة على الإطلاق، بل يقين».

هذه هي النقطة الأولى التي يجب طرحها: فأوَّل إجراء يجب إتخاذه هو تجميع أنفسنا. إذا كنا سنهلك جميعًا بواسطة قنبلة ذرية [فيروس كورونا]، فدع تلك القنبلة [الفيروس] عندما تأتي تجدنا نعمل أشياء

١ شعب النرويج والدنمارك (الإسكندناڤية) قديمًا الذين كانوا قساة، وقد غزوا بريطانيا من جهة الشرق واحتلوا معظم أراضي بريطانيا في ذلك الوقت.

معقولة وإنسانية مثل: الصلاة والعمل والتدريس والقراءة والإستماع إلى الموسيقى الإستحمام للأطفال، ولعب التنس، والثرثرة مع أصدقائنا بخصوص نوع الدهان أو لعبة السهام، لا تتجمعوا معًا مثل الأغنام الخائفة والتفكير في القنابل [الفيروسات]. التي قد تكسر أجسادنا (يمكن للميكروبات أن تفعل ذلك) لكن لا داعي لأن تسيطر على عقولنا». هذه قراءة صعبة، لكنها تذكِّرنا بأن الإيمان المسيحي يعطينا وجهة نظر مختلفة.

أحبوا أعداءكم:

- **ثالثًا**، نحن مدعوون لنُحب. في البداية أُدرِجَتُ بعض الأوبئة المبكرة التي نعرف عنها. ما لم أقله في تلك المرحلة هو أننا نعرف أيضًا شيئًا عن كيفية إستجابة المجتمع المسيحي لها. كتب ليمان ستون، وهو زميل باحث في معهد دراسات الأسرة ومستشار في شركة الإستشارات الديموغرافية، مقالاً بعنوان «المسيحية تعالج الأوبئة منذ ٢٠٠٠ عام»:

«إقترح المؤرخون أن الطاعون الأنطوني الرهيب في القرن الثاني، الذي ربما قتل ربع الإمبراطورية الرومانية، أدى إلى إنتشار المسيحية، حيث قام المسيحيون بالإعتناء بالمرضى وقدموا نموذجًا روحيًا يشهد له. لم تكن الأوبئة آنذاك من عمل آلهة غاضبة ومتقلِّبة إنما نتاج الخليقة الساقطة في ثورة ضد الله المُحِب.

«لكن الوباء الأكثر شهرة هو طاعون قبرص، الذي سُمي على اسم الأسقف الذي قدَّم رواية بوصف مبالغ به عن هذا المرض في خُطبِه. ربما كان ذلك مرض طاعون إيبولا. لقد ساعد طاعون قبرص في اندلاع الأزمة التي عمَّت القرن الثالث في العالم الروماني. لكنها فعلت شيئًا آخر أيضًا، لقد حَفزَّت النمو المتفجر للمسيحية... وطلبت خُطَب قبرص من المسيحيين ألا يحزنوا على ضحايا الطاعون (الذين يعيشون في الجنة)، بل مضاعفة الجهود لرعاية الأحياء. لقد وصف زميله الأسقف

ديونيسيوس كيف أن المسيحيين، لم يكونوا مبالين بالخَطر... قد تولّوا المسؤولية عن المرضى، واهتموا بكل إحتياجاتهم».

هذا ولم يكن المؤمنون وحدهم فقط الذين لاحظوا ردّ فعل المسيحيين بخصوص الطاعون. بعد قرن من الزمان، إشتكى الإمبراطور الوثني جوليان، وشعر بمرارة بسبب كيفية إعتناء «الجليليين» بالمرضى من غير المسيحيين، في حين يروي مؤرخ الكنيسة بونتيانوس كيف ضمِنَ المسيحيون من أن «الخير سيُعمل لجميع الناس، وليس فقط لبني الإيمان». يدَّعي عالم المجتمع الديموغرافي الديني رودني ستارك أن معدلات الوفيات في المدن التي تتضمَّن مجتمعات مسيحية ربما كانت فقط نصف تلك التي في المدن الأخرى.

هذه العادة من الرعاية المضحِّية عادت للظهور عبر التاريخ. ففي عام ١٥٢٧، عندما ضرب الطاعون الدَّبلي مدينة فيتنبرغ الألمانية، رفض مارتن لوثر (طليعة الإصلاح) دعوات للهروب وحماية نفسه. وبدلًا من ذلك، بقي وخدم المرضى. كان رفضه للهروب قد كلَّفه حياة إبنته إليزابيث. لكن ذلك أدى أيضًا إلى إصدار كتيب بعنوان «هل كان يجب على المسيحيين الفرار من الطاعون؟ حيث يقدم لوثر توضيحًا واضحًا للإستجابة المسيحية للوباء:

> «نموت في مواقعنا. لا يستطيع الأطباء المسيحيون التخلي عن مستشفياتهم، ولا يستطيع الحكام المسيحيون الفرار من مناطقهم، ولا يستطيع الرعاة المسيحيون التخلي عن اجتماعاتهم. إن الطاعون لا يلغي واجباتنا: إنه يحولهم إلى صلبان، يجب أن نكون مستعدين للموت».

تختتم مقالة ستون بالبيان التالي:

> «لا ينشأ الدافع المسيحي للنظافة والصرف الصحي للحفاظ على الذات بل في أخلاقيات الخدمة لجارنا. نرغب في رعاية المنكوبين، وهو ما يعني أوَّلاً وقبل كل شيء تجنُّب إصابة الأصحاء. لقد أنشأ المسيحيون الأوائل أول مستشفيات في أوروبا كأماكن صحية لتوفير الرعاية في أوقات الطاعون، على أساس أن الإهمال الذي يُسبِّب في إنتشار الأمراض بكثرة، هو في الواقع قَتِل».

لا يعني أي من هذا أنه يجب علينا تجاهل القواعد التي يتم وضعها لإبطاء إنتشار العدوى، وبالتالي نضع أنفسنا (وغيرنا) في خطر غير ضروري، خاصة في الحالات التي يتعين علينا فيها عزل أنفسنا أو عندما نكون في المنطقة المغلقة. هذا يعني أننا يجب أن نبحث عن كيف يمكننا أن نحب الآخرين، حتى لو كلفنا ذلك أنفسنا، هكذا أحب الله كل مؤمن مسيحي في شخص ابنه، من خلال الموت من أجلهم على الصليب. محبة جيراننا تعني أيضًا تجنب هذا الموقف الأناني الهستيري لما يختص بالطعام والضروريات الأساسية التي تؤدي إلى رفوف متاجر فارغة، بينما يضطر جيراننا التنازل عنها عند إحتياجهم لها.

تذكُّر الأبديَّة:

هذا يُيسِّر لنا نافذة على جانب من الإرث المسيحي الذي غالبًا ما يكون منسيًا.

- **رابعاً**، على المسيحيين أن يتذكروا الأبدية. إنَّ المسيحيين الأوائل الذين عاشوا في عالم خطير حيث كانوا محاطين بجميع أنواع التهديدات وحيث كان العمر المتوقع قصيرًا نسبيًا، مُنحوا قوة خاصة ليعيشوا بتضحية كما فعلوا بالفعل، مما ساهم كثيرًا في تحسين حياة الآخرين، من خلال الحقيقة بأن لديهم رجاءً حقيقيًّا وحَيًّا يتجاوز القبر.

كتب سي. إس. لويس ذات مرة عن هذا بكلمات حافظةً لمكانتها اليوم كما كانت عندما كتبها:

«إنَّ أي كِتاب عن المعاناة لا يذكر شيئًا عن الجنة فهو يتجاهل تقريبًا إحدى جوانب المسألة.

> «إنَّ الكتاب المقدس والتقليد عادة ما يضعان أفراح السماء في الميزان مقابل معاناة الأرض، وليس لديهم حلّ لمشكلة الألم التي لا يفعلون شيئًا بخصوصها إذ لا يمكن تسميتها بالمسيحية. نحن خجولون جدًّا في الوقت الحاضر حتى من ذكر السماء. نحن خائفون من السخرية من «المكافأة في السماء»... ولكن إما أن يكون هناك «مكافأة في السماء» أو لا يكون. إذا لم يكن هناك مكافأة، فإن المسيحية كاذبة، لأن هذه

العقيدة منسوجة فيها نسجًا كاملًا. ولكن إذا كانت هناك مكافأة، فلا بد من مواجهة هذه الحقيقة، مثل أي حقيقة أخرى...»

لم يخجل الرسول بولس، المسيحي الرائد، من ذكر قناعاته وثقته فيما يتعلق بالمستقبل:

«فَإِنِّي أَحْسِبُ أَنَّ آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا... فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا». (رومية ٨:١٨؛ ٣٨-٣٩)

هذه ليست كلمات فيلسوف جالس على كرسي مريح في مكتبه، بل هي عبارة عن رجل رأى وشهد من الحياة بقساوتها وصعوبتها. عانى بولس معاناة غير عادلة من الضرب والسجن بشكل متكرر، وتُرك في بعض الأحيان لكي يموت، وعلى مدى مسيرته عانى الكثير من الحرمان والمشقة.

في بعض الأحيان، كما فعل بولس، أحاول أن أتخيل كيف يكون العالم السَّماوي المجيد. إليكم السؤال الذي يطرح نفسه في داخلي: إذا أُزيل الحِجاب الذي يفصل بين العالم المرئي والعالم غير المرئي للحظة، ويمكننا أن نرى الوضع الحالي لأولئك الذين ماتوا، وعدد لا يحصى من المؤمنين المسيحيين الأبرياء الذين عانوا من الشَّر والإرهاب الذي ارتكبته الحكومات اللاأخلاقيّة، زعماء الحروب وأباطرة المخدرات، أو الذين كانوا ضحايا أبرياء للكوارث والأوبئة الطبيعية، فهل من الممكن، في ضوء كل ما نعرفه عن يسوع المسيح، أنَّ كلّ مخاوفنا بشأن تعامل الله مع الوضع تتلاشى على الفور؟ لم نصل بعد إلى ذلك العالم الآخر، ولكن لدينا رسالة منه عن ذلك، رسالة يحتاجها هذا العالم المصاب بقسوة الفيروس والقلَق أن يسمعها.

الصعود

ولكن من أنا لأكتب عن مثل هذه الأشياء؟ إنني أدرك بشكل مؤلم أن البعض، وربما الكثير، الذين سيقرأون هذه السطور ربما فقدوا أحد أحبائهم مؤخرًا.

قد تشعر وتسأل «ماذا يعرف عن الموضوع؟» إنَّ كل ما يمكنني قوله لمثل هذا الشخص هو أن هناك أشخاصًا يعرفون أكثر بكثير مما أعرفه عن الألم الحقيقي والمعاناة، وبالتالي يمكنهم إظهار المزيد من الفهم لخسارتك، ويؤكدون لك أنه يمكن أن يكون هناك أمل على الرغم مما حدث.

أريد أن أختم بإقتباس من كتاب رائع بعنوان «أختار كل شيء»، الذي وصف فيه جوزان موس (من جنوب إفريقيا) ومايكل وينهام (من المملكة المتحدة) رحلتهما وسط الألم. فقد كان كلاهما يعانيان من مرض عضال (مرض الخلايا العصبية الحركية)، وقد التقيا فقط عبر البريد الإلكتروني.

شبهت جوزان تلك الرحلة بتسلق جبل بأمانة وشجاعة، وكتبت عن كيف حفظها الله:

> «لقد كنت أتسلق الجبل منذ حوالي خمسة عشر عامًا. أمضيتُ معظم تلك السنوات في معسكر القاعدة عند سفح الجبل حيث عرفت أن الله يهيأني. كنت أخشى دائمًا أن أتسلق وظننت أن المعسكَر الأساسي كان هدفي. لم أكن أعتقد أنني سأستطيع الوصول إلى القمة، لكن الله أظهر لي من خلال مرضي أن الأمر لا يتعلق بي، أو ما يمكنني القيام به. لقد كان الأمر دائمًا يدور حوله. «الإِلهُ الَّذِي يُمَنْطِقُنِي بِالْقُوَّةِ وَيُصَيِّرُ طَرِيقِي كَامِلاً. الَّذِي يَجْعَلُ رِجْلَيَّ كَالإِيَّلِ، وَعَلَى مُرْتَفِعَاتِي يُقِيمُنِي» (مزمور١٨: ٣٢-٣٣).
>
> «غادرت أخيرًا معسكر القاعدة وبدأت في صعودي. لقد اختار الله لي ايفرست. من المؤكد أن الأمر لم يكن سهلاً، وكثيراً ما كانت قدمي تنزلق. لقد شعرت في كثير من الأحيان بالضجر، وفي بعض الأحيان لم

أكن أعتقد أنه يمكنني المضي قدمًا. فإنَّ أجزاء من هذا الجبل الشاهق كانت شديدة الإنحدار وبعيدة عن أي شيء يمكنني تحقيقه، لكن الله استمرّ بإظهار قوته وقدرته، وعندما كنت أشعر بالتعب، كان معي هناك. «...وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ» (إشعياء٤٠:٣١).

«شارف تسلقي على الإنتهاء تقريبًا. أعتقد أنني اقتربت من قمة الجبل. كلّما ارتفع المتسلقون، كلما اقتربوا من القمة، يصبح التنفس أكثر صعوبة، وينخفض مستوى الأكسجين مع زيادة الإرتفاع، مما يتسبب في معاناة المتسلقين من مرض الإرتفاع الشاهق. (وفقًا للإنترنت: «أعراض مرض الإرتفاعات المعتدلة والمتوسطة نسبيًا عادةً من تتسبب في الصداع وضيق التنفس ومشاكل النوم وفقدان الشهية والغثيان والنبض السريع). وكلَّما كانت عضلات الجسم تضعف مع تفاقُم الأعصاب الحركية كلما كان المرض يجعل العضلات اللّازمة للتنفس أكثر ضعفًا، فأشعر بضيق في التنفس، ويصبح لدي صداع متكرِّر، وأجد صعوبة في النوم وغالبًا ما أشعر بنبض سريع جدًا. لكن هذا كلّهُ لا يقلقني لأنني أعلم أنني على وشك الوصول إلى قمة الجبل. أصبح التسلق صعبًا، ولكن يجب أن استمر الآن. إنَّ المكافأة التي تنتظرني عندما أُكمِل التسلق تفوق بكثير أي تضحية يقدمها المرء. إسأل أي متسلق جبلي عن ذلك!»

«ها أنا الآن أقف هنا، أنظر إلى الأعلى. النهاية تلوح في الأفق وقلبي ينبض بقوة من الحماس. أتطلع إلى اليوم الذي يمكنني فيه أن أقول: «قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ». (٢تيموثاوس٤:٧)

بعد عامين من كتابة هذه الكلمات، أكملت جوزان تسلقها ووصلت إلى القمة.

إنَّ الكلمات الأخيرة التي اقتبَستُها ليست من كلماتها بل من كلمات بولس الرسول، الذي أضاف يقول:

«وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضًا» (٢تيموثاوس٤:٨).

سيظهر يسوع ذات يوم. وسيكون ذلك هو اليوم الذي وعد به تلاميذه منذ زمن طويل عندما قال لهم:

«سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. (يوحنا١٤:٢٧-٢٨).

قال: «آتي إليكم»، ويوحنا، الذي سجل هذه الكلمات، يخبرنا فيما بعد بما سيأتي به يسوع معه في ذلك اليوم: ليس أقل من خليقة جديدة.

«ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ... وَالله نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ الله كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ» (رؤيا٢١:١؛ ٣ب-٤).

سوف لا يكون بعد الآن لا الفيروس التاجي ولا كلّ الضربات التي دمَّرت العالم. بل إكليل البِّر الذي لن يفنى أو يضمحِلّ، والذي سيهبه الله للذين يحبون الرَّب يسوع. إنَّ السلام الذي نحتاجه في الجائحة! فقط يسوع الذي يمكنه أن يعطيه. إنَّ الأمر الذي يعنينا جميعاً هو: هل نؤمن ونثق به للقيام بذلك؟

تذييل

هل أعتقد أنني أجبت على جميع الأسئلة التي أثارتها هذه الأزمة؟ لا، لم أفعل أبدًا. لقد تركت شخصيًا العديد من المسائل الصعبة التي أود أن يكون لدي مزيد من الوضوح بشأنها. ولكن في يوم ما سأحصل عليه:

«فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ، لكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ» (١كورنثوس١٣:١٢).

في غضون ذلك، سأتبع نصيحة الخطيب العظيم تشارلز سبرجن من القرن التاسع عشر:

«إن الله أصلح من أن يكون عديم اللُّطف، إنّهُ أحكم من أن يُساء فهمه. وعندما لا نستطيع فهم مقاصده، علينا أن نثق بقلبه المُحبّ».

آمل أن تكون هذه القراءة قد أقنعتك بذلك؛ أو، على الأقل، أنه ظهر لك أن الإله الذي وضِع على رأسه إكليل الشوك يستحق المزيد من وقتك وفكرك. آمل أن تبحث بشكل أكمل عمّا إذا كان هو بالفعل الشخص الذي يمكنه أن يمنحك الرَّجاء والسلام، مهما أتت به الأشهر والسنوات القادمة.

جون سي لينوكس

Emmaus عمواس
Middle East الشرق الأوسط